المرأة

في الإسلام

بنتاً وزوجة وأماً

الدكتورة

ليلى حسن سعد الدين

مركز اللغات - الجامعة الأردنية



المرأة في الإسلام

بنتاً وزوجة وأمّاً

الدكتورة

ليلى حسن سعد الدين

مركز اللغات

الجامعة الأردنية

دار وائـل للنشر

الطبعة الثانية

٢٠٠٤

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : (٢٠٠٣/٩/٢١٠٤)
٢٦٥,٤
سعد الدين ، ليلى حسن
المـــرأة فـــي الإسلام: بنتاً وزوجة وأمّا / ليلى حسن سعد الدين . - عمان: دار وائل، ٢٠٠٣.
(١٥٩) ص
ر.إ. : ٢٠٠٣/٩/٢١٠٤
الواصفات: المرأة المسلمة / الإسلام / الفقه الإسلامي

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

ISBN 9957-11-470-0 (ردمك)

* المرأة في الإسلام - بنتاً وزوجة وأمّاً
* الدكتورة ليلى حسن سعد الدين
* الطبعـــة الثانية ٢٠٠٤



دار وائــل للنشر والتوزيع
شارع الجمعية العلمية الملكية - هاتف : ٠٠٩٦٢-٦-٥٣٣٥٨٣٧
فاكس: ٠٠٩٦٢-٦-٥٣٣١٦٦١ - عمان - الأردن
ص.ب (١٧٤٦ - الجبيهة)
www.darwael.com
E-Mail: Wael@Darwael.Com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمة الطبعة الثانية

وقد كانت الطبعة الأولى لكتاب "المرأة في الإسلام" بنتاً وزوجة وأمّاً في عام ١٩٨٤ وهو مجموعة أحاديث إذاعية طُلب إليّ تقديمها في برنامج "من هدي الإسلام" الصباحيّ الأسبوعيّ في إذاعتنا الأردنية المشرقة.

وتبرز موضوعات الكتاب صورة الأنثى الأصيلة المسلمة، وهي صورة تلتزم بثوابت ربانية لا تتغير مع تغير الزمان، وتعاقب الأحداث إلا من خلال هذه الثوابت التي لا تبعد المرأة المسلمة عن تميزها، وعن دورها النبيل العظيم الذي نيط بها؛ بحيث تتفاعل المرأة المسلمة وأحداث زمانها فتؤثر فيها وتتأثر، ولكن ذلك لا يفقدها الجوهر والمضمون، ولا ينسيها الواجب الأقدس وهي كونها نصف الحياة، ونصف المجتمع ونصف الرجل.

وبتآلف المرأة المسلمة مع الحياة، وبتعايشها مع المجتمع، وبتصالحها مع نفسها تصلح الحياة وترتقي، ومعها ترتقي البشرية في مدارج الرفعة والعزة والإباء، وتكون بحق المرأة المسلمة التي يرضى عنها الله ورسوله وصالح المؤمنين – بنتاً وزوجة وأمّاً، وهي بحقٍّ أم الحياة وسيدة جنات الله على الأرض وفي السماء.

والله أسال العفو والعافية والستر في الدنيا والآخرة.

المؤلفة

الحلقة الأولى

الأنثى بنتاً في الإسلام

لم يكن اهتمام الإسلام بالمرأة عارضاً، وإنما هو اهتمام نابع من صميم هذا الدين وجوهره، الذي يرفع من قيمة الإنسان ليكون جديراً بخلافة الله على هذه الأرض "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة".

والمرأة هي النصف الآخر لهذا الإنسان، وقد بوأها الإسلام مكانة سامية، بعد أن أهدرت حقوقها القوانين الأرضية، حتى كانت سلعة تباع وتشترى، ووهبها الإسلام نفسها، وأعطاها حرية الكلمة والشعور والحس، ومضى معها على الدرب الطويل منذ ولادتها، فقد كرمها مولوداً حين حرم وأدها، وأعطاها حق الحياة "وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت". فأي ذنب جنته المولودة حتى استحقت عليه الوأد قبل أن ترى النور؟

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد بلغ بالعرب كره البنات إلى درجة أنهم جعلوا البنات لله سبحانه، وكانت ولادة البنت عاراً يخجل منه العربي، "ويجعلون لله البنات سبحانه، ولهم ما يشتهون، وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب، ألا ساء ما يحكمون ".

وإلى جانب الوأد قاست الأنثى ظلماً من نوع آخر هو السبي، فقد عد الجاهلون المرأة من سقط المتاع الذي ينهب في الحروب، ويتصرف به كيفما شاء من بيع وتمتع وامتهان واسترقاق، غير آبهين لأرحام قطعت، وأنساب اختلطت وجاء الإسلام وحرم السبي.

وكان امتهان لإنسانية المرأة، فسوى الإسلام بين دمها ودم الرجل، صار يقتل قاتلها، كما سوى بينهما في حد القذف.

وكان استئثار ذويهن بالمهور، فجعلها الإسلامّ حقاً لهن خالصا، لا ينزعه إلا ظالم "وآتوا النساء صدقاتهن نحلة".

وكان حرمان من ميراث، فقرر لهن الإسلام حقوقهن فيه "للذكر مثل حظ الأنثيين".

وكان إساءة عشرة لهن، فنزل وحي الله "وعاشروهن بالمعروف".

تلك بعض مظالم المرأة قبل الإسلام، فقضى عليها الدين الجديد وعلى غيرها قضاء تاما، وأعطى الأنثى من الحقوق ما جعلها مساوية للرجل، حتى اعتدت بنفسها الاعتداد كله، فقالت فيها عائشة رضي الله عنها "إنما النساء شقائق الرجال".

ولقد جاهد الرسول صلى الله عليه وسلم جهاداً عنيفاً لانتزاع ما بقي في نفوس العرب من كره البنات. وكان صلوات الله عليه قدوة حسنة مع أزواجه وبناته. حدثت عائشة رضي الله عنها "دخلت عليّ امرأة ومعها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندي شيئاً غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها، ثم قامت فخرجت. فدخل النبي صلى الله عليه وسلم علينا فأخبرته فقال" من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كنّ له ستراً من النار".

ولرسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث تفجر القلوب رحمة وحناناً على البنات "من كان له ثلاث بنات فصبر عليهن كن له حجاباً من النار يوم القيامة".

وقوله صلى الله عليه وسلم "من عال ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو أختين أو بنتين فأدبهن وأحسن إليهن وزوجهن فله الجنة".

وله صلى الله عليه وسلم "من كان له ابنة فأدبها فأحسن تأديبها، وغذاها فأحسن غذاءها، وأسبغ عليها من النعمة التي أسبغ الله عليه كانت له ميمنة ميسرة من النار إلى الجنة".

ويؤكد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه على المساواة في العطاء بين البنت والولد "ساووا بين أولادكم في العطية، فلو كنت مفضلاً أحداً لفضلت النساء".

ويشدد الرسول صلى الله عليه وسلم على هذه المساواة، ويجعل ثوابها الجنة "من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها أدخله الله تعالى الجنة".

و الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة عظيمة عطفاً وحناناً وصورة رائعة في معاملة الأنثى، وهي أحوج ما تكون إلى مثل هذا العطف وذلك الحنان، فقد كانت فاطمة تدخل عليه فيقوم لها ويأخذ بيدها ويقبلها ويجلسها في مجلسه. وكان إذا أراد سفراً جعلها آخر العهد به، ثم صلى ركعتين ومضى. فإذا قدم من سفر جعلها أول العهدبه، بعد أن يبدأ بالمسجد، فيصلي ركعتين. وكان يحمل أمامة بنت زينب ابنته، وهو يصلى الفريضة، فإذا سجد وضعها وإذا قام رفعها.

وحدثت الصديقة بنت الصديق أنه أهديت لرسول الله هدية فيها قلادة من جزع، فقال لأهدينّها إلى أحب أهلي إليّ. فقالت النساء ذهبت بها ابنة أبي قحافة، ودهشوا حين دعا الرسول أمامة فأعلق القلادة في عنقها.

وهذه الأنثى الطفلة أحاطها رسول الهدى بحبه في أرق مشاعرها، وأدق حالاتها. فعن ابن عباس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم "من فرح ابنته فكأنما أعتق رقبة من ولد إسماعيل، ومن أقر عين ابنة فكأنما بكى من خشية الله".

كل ذلك غيض من فيض، وأمضي مع هذه الطفلة، وقد بلغت مبلغ الصبا حتى أضحت زوجة يحيطها الإسلام والرسول بفيض لا يغيض من الرعاية والإكرام والتبجيل. وقد وضع لها عنواناً بفيض رحمة وألفة وأمناً يقول سبحانه "هن لباس

لكم وأنتم لباس لهن". واللباس يعني الحماية والأمن والجمال، وأعلى من ذلك وأكثر الأنس والألفة، وهو وصف عظيم للمجالسة والمؤانسة التي أوجدها الخالق عز وجل بين الرجل والمرأة. فهي والحالة هذه ترتبط بالرجل في جميع أدوار حياتها. بين سمعها وبصرها ينشأ الطفل، وتحت رَعايتها يكبر، وبآدابها وأخلاقها يتغذى، وهي منبع الحب والإخلاص والوفاء، هي منار الفضيلة ومجمع الأخلاق الكريمة، هي موئل الرجل وعونه في شدته، ثم هي نوره وبصيرته، بعينها يبصر، وبرأيها يسعى ويدبر، وبعطفها وحنانها يغالب الحياة وينتصر.

من هنا كانت عناية الإسلام بهذه الزوجة، فوضع لها أعدل التشريع وأقومه، ووقف الرسول صلى الله عليه وسلم يدافع عنها دفاعاً يرسم لها فيه صورة الرجل الذي ستكون له شريكة وقال صلى الله عليه وسلم "إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير".

والدين الحنيف، دين السماء والأرض يضع حول المرأة سياجاً من الأمان والاستقرار، فهو يأمر بالمساواة الحقة بين الزوجين، ويبين حقوق كل منهما قال سبحانه "ولهن مثل الذي عليهن، بالمعروف، وللرجال عليهن درجة".

صدق الله العظيم.

الحلقة الثانية

الأنثى زوجاً في الإسلام

لقد كرم الإسلام الأنثى أعظم التكريم، واهتم بها كل الاهتمام، بنتاً وزوجةً وأماً، ووقف الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جانبها في جميع مراحل حياتها، مؤكداً في ذلك دين الله الإسلام، الذي وضع المرأة في أطر الأمان والاطمئنان، فساوى بينها وبين الرجل، وقضى لها بالسعادة الواجبة عليه قال سبحانه "فأمسكوهنّ بمعروف أو فارقوهنّ بمعروف".

وعظم القرآن شأن الرابطة الزوجية، وحث على الوفاق بين الزوجين، وحث الزوج بصورة خاصة على حسن المعاشرة، وعدم الاستجابة لعاطفة النفس ونزواتها، وبذل الجهد في الصلح والتوفيق بين الزوجين، مع عطف على المرأة بنوع خاص بمختلف الصور في مختلف المجالات، قال الرسول (ص) "النساء شقائق الرجال".

وأسبغ القرآن على الحياة الزوجية معنى رائعاً بقوله سبحانه "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون". فهي تذكر الزوجين معاً بمدى ما في هذه الحياة من هدوء وسكينة واستقرار، على أساس ما أوجده فيهما من قابلية التواد والتراحم، وحيث توجب عليهما بطبيعة الحال أن يفهماها ويمارساها على هذا الوجه، وتوجب عليهما أن يكون أساس المودة والرحمة الذي تقوم عليه متقابلا في الممارسة والفهم والشعور على قدم المساواة.

والزوجية الصالحة يجب أن تقوم على المودة والرحمة، وكل زواج يقوم على غيرهما، لا يقوم على النهج الإسلامي الصحيح، ثم إن الله تعالى وهو العليم بخلقه،

رسم للأزواج سبيل التصالح إن وقع بينهما شقاق في قوله سبحانه "وان خفتم شقاق بينهما، فابعثوا حكماً من أهله، وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيراً". وقوله جل وعلا "وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً، فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير، وأحضرت الأنفس الشح، وإن تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيرا".

والمتأمل في كتاب الله الكريم يرى أنه حرص في أكثر من موضوع على صيانة كيان الأسرة، ووضع الحلول لتفادي مساوئ افتراق الزوجين. وكفى عظة للمؤمنين ما حكاه الله في سورة المجادلة إذ يستمع الله في عليائه لزوجة تجادل في زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم "قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله، والله يسمع تحاوركما، إن الله سميع بصير".

وقد قالت السيدة عائشة رضي الله عنها في قصة هذه المجادلة "تبارك الذي وسع سمعه كل شئ، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تقول: يا رسول الله، أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية "قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله".

والمصطفى صلوات الله عليه هو المثل الأعلى للزوج، فهو يقول "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي". والحديث يوجب رفق الرجل بالمرأة، واحترام أحاسيسها ومشاعرها، وأن يكون لهم الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك المثال والكمال، فقد كان أبر زوج، وأوفى عشير، يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب شاته، ويكون في مهنة أهله، ولقد كنّ يتظاهرن عليه، ويسألنه أحيانا ما لا يستطيع حتى خيرهن الله تعالى بقوله "يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتنّ تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار

الآخرة، فإن الله أعد للمحسنات منكنّ أجراً عظيماً". وقال النبي لعائشة: لا تعجلي برأي تستشيري أبويك، فقالت أفيك استشير أبويّ يا رسول الله؟ إني اختار الله ورسوله والدار الآخرة. وكذلك قال نساؤه أجمعين.

والزوجة إحدى بنات آدم عليه السلام "كل بني آدم خطاء" كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم. وفي هذا إبراز لضعف المرأة، وتصريح الى ما قد تقع فيه من الخطأ، ولكنه الخطأ الذي لا تهتز له كيان الأسرة. وهذا يحتاج معه الرجل إلى الوقوف إلى جانب الزوجة، يرشدها وينصحها ويهديها، وإذا شاب هذا النصح بعض الشدة، فهي الشدة التي لا يظلهما بها. وقد قال رجل للحسن. يخطب ابنتي الكثيرون فممن أزوجها؟ فقال: زوجها ممن يتقي الله، فإنه إن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها.

والرسول صلى الله عليه وسلم أعظم قدوة في نصح الزوجة وإرشادها، حتى وإن كانت هذه الزوجة ابنته الاثيرة المحبوبة فاطمة، فقد كان في الإمام علي شدة على السيدة فاطمة، فقالت يوماً: والله لأشكونك إلى رسول الله، فانطلقت، وانطلق علي في أثرها، فقام بحيث يسمع كلامها، فشكت للرسول غلظ علي وشدته عليها. فقال: يا بنية اسمعي واستمعي واعقلي، إنه لا امرأة، لا تأتي هوى زوجها وهو ساكت. قال علي: فكففت عما كنت أصنع، وقلت: والله لا آتي شيئاً تكرهينه ابداً".

وفي رد الرسول صلى الله عليه وسلم على فاطمة ابنته حث للزوجة على طاعة زوجها، وأن على الزوجة أن تسلس قيادها لزوجها فيما يفيد وينفع، حتى تهيئ لأفراد الأسرة أجواء الأمان والحماية والاستقرار والمودة، ليكونوا أعضاء أسوياء تمضي بهما سفينة الحياة بعيداً عن الهزات التي قد تتعرض لها، حتى تتوافر في مجتمع تحكمه عوامل القوة البناءة.

وفي رد الرسول (صلى الله عليه وسلم) الشدة المغلفة بالحب لهذه الزوجة وهي ابنته، ففي رده عليها رد على الزوجات جميعا. وهو المعلم القدوة فيما يقول أو

يفعل أو يقر، ويوم جاءت فاطمة تطلب من الرسول – وهي بضعته وأم ابنيه – خادماً يعينها على بعض أمر بيتها قال: اتقي الله يا فاطمة، لا أعطيك وادع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع.

وفي رواية أبي داود "اتقي الله يا فاطمة، وأدي فريضة ربك، واعملي عمل أهلك، فإذا أخذت مضجعك فسمي الله ثلاثاً وثلاثين، واحمدي ثلاثاً وثلاثين، وكبري أربعاً وثلاثين، فهي خير لك من خادم". قالت "رضيت عن الله وعن رسوله".

والإسلام حفظ للمرأة كيانها، وأعطاها قدرها وقيمتها، فهي الأساس المتين الذي تقوم عليه رفعة الأسرة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس". وكان سيدنا عمر بن الخطاب يقول "إياكم وخضراء الدمن فإنها تلد مثل أصلها، وعليكم بذات الأعراق فإنها تلد مثل أبيها وعمها وأخيها".

وقال صلى الله عليه وسلم "تخيروا لنطفكم فان النساء يلدن أشباه إخوانهن وأخواتهن".

صورة اخرى اثبتها هنا للزوجة، وهي صورة تؤكد حق الفتاة في ابداء رأيها فيمن سيكون لها زوجاً فقد "جاءت فتاة إلى رسول الله فقالت: ان أبي زوجني ابن أخيه ليرفع به خسيسته، فجعل الأمر اليها. فقالت: قد أجزت أبي، ولكن أردت ان اعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء".

كان ذلك صورة للزوجة في الإسلام، وما كان لها من تقدير واحترام أعطاه لها دين الله، دين السماء. الإسلام. وقد حفظت الزوجة المسلمة ذلك التقدير بما تقوم به إزاء زوجها وأولادها من العناية والرعاية، فاستحقت بذلك لقب الشرف الأبدي، الزوجة المسلمة بقلبها العامر بالإيمان وتقوى الله، بعيداً عن جحود زوجة الغرب الذي يدعي الحضارة، وقد حمل الينا واقع الغرب قصة زوجة أوروبية ليست من نسج الخيال، ولكنها من صميم واقعهم، وقد نبذت هذه الزوجة – وهي من أسرة كبيرة –

ابنتها، وعمرها اربع سنوات، وتركتها لمن يتبناها في بلاد بعيدة، والذي دفع هذه الزوجة إلى ذلك ليس الفقر، وانما هو الجحود والنكران لاعظم غرائز الأنثى، غريزة الأمومة، فهي تقول: إنها لا تحب ابنتها، ولا تشعر نحوها بأي عاطفة، وعلى ذلك فمن الخير لها وللبنت أن يتبناها المحروم من البنوة، ومن يتوق لها.

ولن اعلق على ذلك، وإن قيل إنها مسألة فردية. ولكنها صورة، او بعض صورة للغرب الذي غفل عن حقيقة الترابط في الاسرة. وسيبقى الإسلام في قمة شماء في دعم أركان الاسرة.

ولن أترك الزوجة في الإسلام دون تجسيم لموقف الرسول صلى الله عليه وسلم من آخر خطبة له في حجة الوداع في التاسع من ذي الحجة من السنة العاشرة للهجرة، حين أحلّ الزوجة مكانها من قلب زوجها فقال "ايها الناس، إن لنسائكم عليكم حقا، إنما النساء عندكم عوان، يمكن لأنفسهن شيئا، اتخذتموهن بأمانة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيرا. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد!".

صدق رسول الله.

الحلقة الثالثة

الأنثى أماً في الإسلام

اما الأم في الإسلام فقد كرمها هذا الدين كل التكريم، وقدسها كل التقديس، فإن "الجنة تحت أقدام الأمهات".

فهذه الأم هي أعظم من نطق الوجود، فقد حملتنا تسعة أشهر، نتقلب في احشائها في ظلمات ثلاث "يخلقكم في بطون امهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث، ذلكم الله ربكم، له الملك، لا إله إلا هو فأنى تصرفون". فتقر حركتنا هنالك عينها وتهفو نفسها إلى اللحظة التي تحفها فيها المخاطر، وتختلجها فيها من شتى جوانبها الآلام، وهي تدفعنا إلى نور الوجود، وفسحة الحياة. فإن أي بر لا يؤدي لوالدينا حق الشكر، ولا يوفيهما بعض الأجر. ولقد جاء رجل إلى رسول الله يستأذنه في الخروج للغزو، فسأله: هل من والديك أحد حي؟ قال كلاهما. فقال صلوات الله عليه: ففيهما جاهد. أي ابلغ جهدك في برهما والإحسان إليهما. فذلك يقوم لك عند الله مقام الجهاد في سبيله.

وحين سأل صحابي رسول الله "من أحق الناس بحسن صحابتي؟" قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: امك. قال :ثم من؟ قال: امك. قال: ثم من؟ قال: ابوك.

والام هي العطاء هي التفاني، وهي التضحية والبذل دون مقابل، تشقى لإسعاد أولادها، وتكد لاجل راحتهم، وتسهر حتى يناموا، وهي بذلك كله سعيدة راضية. أمدها الله سبحانه بصبر من عنده، لا تثور ولا تغضب، وإذا غضبت أو ثارت فمن

باب الرحمة عليهم، والرفق بهم، حتى في أقصى حالات غضبها نسمع لسان حالها يقول:

أدعو عليه وقلبي يقول يا رب لا لا

والإسلام حين كرم الأم في كتاب الله العزيز، وبلسان رسول البشرية الهادي، فهو يكرم سر الله الأعظم على هذه الأرض، السر الذي لا تدركه الأنثى إلا في هذا الدور من أدوار حياتها فـ "الجنة تحت أقدام الأمهات" وهذا يلفت الأنظار إلى صور رائعة، تبرز في القرآن ما استهدفت له الأم من شدائد ومشاق، وما وهبت من عواطف كريمة في مراحل حياتنا. قال تعالى "ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن" وقال سبحانه "ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا، حملته أمه كرهاً ووضعته كرها". ثم تجلو لنا الآية صورة فذة لابن بار فيقول تعالى "وحمله وفصاله ثلاثون شهرا، حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال: رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي، وان اعمل صالحاً ترضاه. وأصلح لي في ذريتي. إني تبت إليك وإني من المسلمين. أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة، وعد الصدق الذي كانوا يوعدون".

وليس بر الوالدين القيام على شؤونهما في حياتهما فحسب، بل يتعدى ذلك إلى ما بعد هذه الحياة. قال مالك بن ربيعة، بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل من بني مسلمة فقال: يا رسول الله: هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد وفاتهما؟ قال : نعم. الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما".

والله سبحانه قد شفع الإحسان إلى الوالدين بتوحيده. ثم ضيق الأمر في مراعاة التوصية بهما، حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من التضجر من موجبات الضجر، ومع أحوال لا يكاد يصبر الإنسان معها "وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما، فلا تقل لهما أف ولا

تنهرهما، وقل لهما قولاً كريماً، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا".

ولقد جعل الله شكر الشاكرين لأنعمه لا يتم على خير وجوهه حتى يمازجه شكر الوالدين فقال سبحانه "أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير".

وبلغ البر بالأم حداً كبيرا، حفل تاريخ الإسلام بصور رائعة لبررة بوالديهم، فكان علي زين العابدين يقول" أخاف أن تمتد يدي إلى ما سبقت إليه عينها فاكون قد عققتها". وذلك كان يقوله حين يجلس مع أمه يأكل، فلا يمد يده قبلها إلى الطعام.

وورد في الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين في فصل "دعاؤه لأبويه" عليهم السلام "اللهم اجعلني أهابهما هيبة السلطان العسوف، وأبرهما بر الأم الرؤوف، واجعل طاعتي لوالديّ، وبري بهما أقر لعيني من رقدة الوسنان، واثلج لصدري من شربة الظمآن، حتى أوثر على هواي هواهما، وأقدم على رضاي رضاهما، واستكثر برهما وإن قل، واستقل بري بهما وإن كثر. اللهم وما تعديا عليّ فيه من قبل، أو أسرفا عليّ فيه من فعل، أو ضيعاه من حق، أو قصر بي عنه من واجب، فقد وهبته لهما، وجدت به عليهما، ورغبت إليك في وضع تبعته عنهما. فإني لا اتهمهما على نفسي، ولا استبطئهما في بري، ولا أكره ما تولياه من أمري".

أين إذن يا الهي طول شغلهما بتربيتي، وأين شدة تعبهما في حراستي؟ وأين اقتارهما على أنفسهما للتوسعة علي؟ هيهات ما يستوفيان مني حقهما، ولا أدرك ما يجب عليّ لهما، ولا أنا قاض وظيفة خدمتهما.

ويقابل هذا الجانب المضيء من بر الوالدين صورة قاتمة لأبناء عميت قلوبهم عن الحق، وجحدوا أعظم نعم الله سبحانه، فعقوا أمهاتهم، ففي السنة أن علقمة كان يعاني سكرات الموت، وأصحابه يلقنونه الشهادة فلا ينطق بها لسانه، فأخبروا الرسول بخبره، فسأل أمه عنه. فذكرت صومه وصلاته وعبادته. فقال: ما عن هذا

سألتك، ولكن كيف بره بك؟ فقالك يا رسول الله إني عليه ساخطة واجدة. فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه. غضب أمه عليه عقد لسانه عن لا اله إلا الله. إيتوني بحطب أحرقه. وكان الرسول يريد ان يحرك فيها عاطفة الإحسان والغفران. فقالت: ابني وحشاشة قلبي تحرقه يا رسول الله. فبين لها أن النار مثواه إلا أن ترضى عليه. فأشهدت الله ورسوله من فورها أنها عفت عنه. فعاد الصحابة إلى علقمة، فسمعوه يفيض بالشهادتين لسانه. وقال الرسول (ص): الحمد لله الذي أنقذه بي من النار.

ولن اعلق على هذه القصة، فإن إحداثها الرهيبة، تجسم العقوق من ابن تقف منه أمه هذا الموقف، ولا يمكن لام ان تقف كهذا الموقف ما لم يكن عقوق ابنها بلغ حداً حجب معه اقدس عاطفة سماوية، عاطفة الأم.

وتاريخ الإسلام حافل بقصص أمهات عظيمات خلدهن التاريخ، وتناقلت الأجيال أخبارهن، واكتفي بواحدة منهن هي أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وانقل لها صورتين اثنتين: الأولى صورتها زوجة طائعة صابرة. والثانية صورة الأم التي تفخر بها كل أم.

فقد كانت أسماء بنت أبي بكر زوجة للزبير بن العوام – رضي الله عنه – تزوجها وهو فقير، فعملت معه في الحقل. وكانت تحمل النوى على رأسها لتعلف به بعيرها. فرأها الرسول وهي على هذه الحال يوماً. فأراد أن يركبها خلفه على بعيره. فرغبت في ذلك ثم ذكرت غيرة زوجها فاعتذرت للرسول وحدثت بذلك زوجها بعد ذلك فقال "والله لحملك النوى على رأسك أهون علي من ركوبك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولم ينكر عليه الرسول مقالته، لما يعلم من غيرته رضي الله عنه.

تلك صورة أسماء الزوجة. أما أسماء الأم فقد دفعت ابنها عبد الله بن الزبير إلى الشهادة، بعد أن دانت له العراق والحجاز واليمن ثماني سنين. وتمت له إمرة

المؤمنين. ثم لم يلبث أن انتقص منه عبد الملك العراق. ورماه بالحجاج الذي لحق به حتى ألجأه إلى مكة. واشتد أوار الحرب بينهما، حتى دخل على أمه يستلهمها الرأي فيما يعد به الحجاج ويمني، أو في مواصلة الجهاد. فقالت له "يا بني إن الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح" في كلمات وضاء كلها إيمان وتضحية. وتم تنكيل الحجاج بابن الزبير فسلخ جلده وحشاه تبناً وعلقه. والحجاج ينتظر أن تتوسل أسماء إليه فينزل ابنها المعلق. كل ذلك وأسماء ثابتة بالإيمان. ولم تزد على قولها للحجاج: أما آن لهذا الراكب أن يترجل؟

وبعد فأقول لقد بلغ الإسلام المدى في تكريم المرأة، فجعل لها حضانة أولادها حين تفترق عن زوجها، ثم لأمها قبل أن يجعلها للزوج او للنساء من أهله. واشترط لمصلحة الأولاد في الحاضنة شروط الحرية والبلوغ والعقل والقدرة على صيانة الصغار وتربيتهم. وان تكون مأمونة في سيرتها، غير متزوجة بأجنبي من الصغير، واسقط حق الفاسق الماجن في حضانة البنت الصغيرة. على حين لم يسقطها عن الأم غير المسلمة بالنسبة للولد المسلم، إلا إذا اصبح يفهم معنى الدين، ويخشى عليه أن يألف غير دينه.

وقد حرص الإسلام على استقلال شخصية المرأة على عكس ما هي عليه في ظل الحضارة المادية والنور الصناعي في أوروبا وغيرها.

ويقول سيد قطب "وحسب الإسلام ما كفل للمرأة من مساواة دينية، ومن مساواة في التملك والكسب، وما حقق لها من ضمانات في الزواج بإذنها ورضاها دون إكراه ولا إهمال " وفي مهرها

"فآتوهن أجورهن فريضة" وفي سائر حقوقها الزوجية، زوجة أو مطلقة "فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف، ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا" "وعاشرهن بالمعروف".

كان ما تقدم جانبا يسيراً من صورة الأنثى في الإسلام. وهي العضو الفعال في أمة قال فيها سبحانه "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر". وهي أمة تدين بدين الله، الإسلام و "إن الدين عند الله الإسلام".

آباء وأبناء

قال تعالى: "آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا".

كثيراً ما نسمع بعضهم يقول: لماذا يشقى الإنسان ويكد ويتعب من أجل أبنائه، فماذا سيصنع الأبناء لآبائهم؟.

بل إن بعضهم يمضي أكثر من ذلك فيقول: لن اصنع لأبنائي أكثر مما صنعه أبي لي.

فكأن زماننا هو زمن آبائنا، كما أن زمن آبائنا لم يكن زمن أجدادنا وهكذا. يريدون ضمان المستقبل الذي علمه بيد مصرف الأمور سبحانه، فيضيعون معه حاضرهم، وتضيع معه لحظات هنائهم وسعادتهم بالأبوة أو الأمومة.

أو كأن الأبوة والأمومة صفقة تجارية مشروطة بالأخذ مقابل العطاء.

وينسى هؤلاء أو ينتاسون أن الأبوة والأمومة عطاء وبذل وتفان بمقدار ما تجود به طاقاته وقدراته وزمانه ومكانه، انطلاقاً مما قاله القدماء "غرسوا فأكلنا ونغرس فيأكلون".

ولو كان أمر خلاف هذا لاختل توازن الحياة، ولما أرضعت أم ولدها، ولا أشفق والد على ولده.

فتلك سنة الحياة وحكمة الله سبحانه "فلن تجد لسنة الله تبديلا"، "ولن تجد لسنة الله تحويلا".

وحين يتحدث أولئك بذلك المنطق المعكوس فإنما هو انعكاس لمحاولتهم التنصل من مسؤوليات الحياة، بل أقدس المسؤوليات على الإطلاق مسؤولية تربية الابن وتنشئته وتأديبه وتهذيبه، وهو ريحانة من الجنة كما يقول رسول الله (ص).

فماذا يرجو الآباء والأمهات من أبنائهم غير أن يكونوا من أفضل الناس في حياة يتصارع فيها الأحياء على البقاء؟

فليس يخفى علينا جسامة المهمة وفداحة المسؤولية التي يضطلع بها الآباء والأمهات، فهي تهيئ الأبناء لزمان غير زمانهم، وهنا تكمن الخطورة، يقول رسول الله (ص) "أدبوا أولادكم بغير أدبكم فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم".

فالأمومة والأبوة عطاء بلا مقابل. وتضحية بدون حدود، وتفان بغير ثمن. وليس عبثاً أن يجعل الله سبحانه إرضاء الوالدين بعد إرضائه "واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالولدين إحسانا".

وماذا يقدم الأبناء لآبائهم؟ فان ما يقدمونه لا يفي بذرة عطف أو تضحية أو تفان قدمها الآباء. بل إن حياة الأبناء نفسها لا تعدل لحظة من لحظات مكابدة الآباء في سبيل تربيتهم. قال رسول الله (ص): "لن يجزي ولد والده حتى يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه".

وحياة الابن نفسها ملك لأبيه يقول صلى الله عليه وسلم "أنت ومالك لأبيك". أبوة متجددة وأمومة زكية معطاءة، ومقياس هذه العاطفة المقدسة – فيما أرى- أن الأبوين يأبيان أن يكون من هو افضل منهما، أما حين يصل الأمر إلى ابنهما فهما يحبان أن يكون أفضل منهما ومن الناس جميعا.

ومن هذا المنطلق يكون استخفاف الوالدين بكل صعب، واستهانة بكل خطب في سبيل الأبناء، وتوفير الحياة الكريمة لهم، المزودة بالايمان والفضيلة والإقدام. هذا

هو مسار الأبوة والأمومة كما هو مقدر في الحياة. الآباء يشقون لأجل أبنائهم، والأبناء يكدون من أجل الأحفاد في إطار زمانهم.

فهي شرعة الله تعالى ومنهاجه "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا" (المائدة:٤٨). أما أن يدور في حياتنا كثير من تعبيرات اللامسؤولية والتحلل من جد الحياة إلى هزلها فذلك ما يعيب غريزة الأمومة والأبوة، وينقص من قدرها في نفوس أصحابها.

بل إن من العبث أن يطلق هذا اللفظ المقدس على أولئك الذي ينسون أو يتناسون أنهم آباء وأمهات، ماضين إلى أنفسهم يشبعونها عبثا وفراغا، تاركين أبناءهم يعيشون حسبما يشاؤون وكيفما يهوون، بعيدا عن المراقبة الدائمة الدائبة، والعين الساهرة والضمير المستيقظ أبدا.

فالأسرة بجميع أعضائها نواة للمجتمع الكبير، أقامها القرآن الكريم على أساس من الحق والعدل والإحسان، وهي تقوم على البذل والرعاية من الآباء، وعلى الطاعة والبر والإحسان من جانب الأبناء.

وبمقدار ما يزرع الآباء للأبناء يحصدون، فلكل دوره، وواجبه، ولكل حقه. قيل: "يا رسول الله ما حق الوالدين على ولدهما؟ قال: هما جنتك ونارك".

صدق رسول الله.

رسالة الأم المسلمة

حديثي هنا يتعلق بالحياة في أقدس جوانبها، بل في أقدس مهمة نيطت بالأم، تلك هي رسالتها إزاء ابنتها.

ولست هنا بصدد الحديث في حقوق المرأة، فهذا أمر بدهي لا يشك فيه عاقل. فهي أي المرأة في جوهر قوله سبحانه "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة".

فالمرأة في الأسرة هي العنصر الثابت والركيزة الدائمة، وهي النبع الطبيعي للعطف والحنان، في حين أن الرجل هو عامل ارتباط الأسرة بما هو خارجها، فهو الذي يمارس الصراع في الخارج، مع الطبيعة أو المجتمع، صراعاً مادياً لكسب العيش ومعنوياً في سبيل عقيدة أو دعوة.

من هذا كله كانت المرأة هي البيئة التي يجد فيها أفراد الأسرة من زوج وأولاد السكينة والطمأنينة والأمان ما لا يجدونه خارج الأسرة.

وقد لخصت وظيفة المرأة الأساسية أروع تلخيص وأجمله في حديث الرسول (ص) "خير نساء ركبن الإبل، صالح نساء قريش أحناه على ولد في صغره وأرعاه على زوج في ذات يده".

وهذا يؤكد رسالة المرأة المقدسة التي لا تعدلها رسالة في الحياة، فإن المرأة مهما أوتيت في الحياة الدنيا من مال وعلم وثقافة فذلك كله لا يعادل لحظة واحدة تحياها في بيتها بين أفراد أسرتها بسلام وأمان.

وذلك يعني أمراً واحداً لا بديل منه، هو أن الأم هي المسؤولة في المقام الأول عن أولادها. وعلى وجه التحديد أقول هي المسؤولة عن ابنتها، فكيفما تكن هذه الأم تكن ابنتها.

فهي أخطر الأمانات وأغلاها في مدرسة أمها التي هي أول معلمة تتلقى ابنتها على يديها وقلبها وروحها وإحساسها أول درس في الحياة. ولكنه الدرس الذي يحدد لها معالم طريقها إن كان خيراً أو شراً.

ولا شك في أن هذا يتطلب من الأم التضحية والتفاني والبذل، ويحملها على أن تكون القدوة الصالحة لابنتها متانة خلق، وعزة نفس وثبات قلب وطهارة أعماق وجوارح.

وفوق هذا أو بعده أن تكون الأم لابنتها العين الساهرة التي لا تغفل ولا تنام لحظة قد تتعرض فيها ابنتها إلى الشر الذي يرديها في خلقها وعرضها.

ورسالة الأم إزاء ابنتها عريضة واسعة لا يحدها حد، وهذه معروفة بغزيرة الأمومة التي لا تخطئ.

وأهم جوانب رسالة الأم أن تجنب ابنتها المخالطة غير المشروعة في داخل البيت وخارجه، وليس هناك من يجهل خطر المخالطة، وإن كان الكثيرون يتجاهلونها، ويبررون اختلاطهم بشتى المبررات التي تدينهم، ولا تخرج عن كونها كذباً على أنفسهم. قال رسول الله (ص) "إياكم والخلوة بالنساء والذي نفسي بيده ما خلا رجل بامرأة إلا دخل الشيطان بينهما، ولأن يزحم رجلاً خنزير ما لطخ بطين أو حمأة خير له من أن يزحم منكبه منكب امرأة لا تحل له" (البخاري ومسلم والترمذي).

وماذا يعني هذا غير الابتعاد عن كل ما يثير الغريزة التي تقترب بصاحبها من الحيوان إذ ليس له من هم غير إشباع هذه الغريزة التي عطل فيها العقل والحس والشعور وأردته جسدا وغريزة. وصور هذا في حياتنا كثيرة لا حصر لها، في

الشارع والسيارة والمتجر وكل مكان. ناهيك عن المخالطة في داخل البيوت، وهذه يطلق عليها أصحابها عدة أسماء، وكلها تعطي اختلاطهم صفة الشرعية، وعذرهم في هذا – حسبما يدعون – أن اختلاطهم عائلي ظاهره الرحمة وباطنه العذاب.

صورة ثانية لهذا الاختلاط والاختلاء تلك الدروس الخصوصية، حيث يكون فيها الرجل المعلم هو القدوة لتلك الطالبة البريئة، وبعد الدرس الأول فحسب يختلف الحال، ويصبح الأمر درساً خصوصياً، ولكن ليس بعلم الله ولكن بعلم الشيطان. وصدق رسول الله (ص) حيث يقول:"ما خلا رجل بامرأة إلا همت به أو هم بها. قالوا: أولو كانا صالحين يا رسول الله؟ قال: ولو كانا مريم بنت عمران ويحيى بن زكريا".

وتحقيق هذا كثير لا نفتأ نسمعه بين الحين والآخر، وهو في المقام الأول مسؤولية الأم التي تنسى واجبها إزاء ابنتها في غمرة انشغالها بنفسها ومتعها ورواحها ومجيئها وزياراتها التي لا تنتهي، تاركة ابنتها في فراغ عاطفي تعمقه الأيام وتجرها فيه إلى متاهات الحياة ومساربها الخفية التي يقودها إليها إنسانة في ثوب صديقة تدعي الصداقة، وقد أوتيت هذه لساناً حلواً وقلباً مراً يزين لهذه الفتاة الشر خيراً، والرذيلة فضيلة، وفي هؤلاء قال تعالى: "يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون" (آل عمران:١٦٧).

وقال رسول الله (ص) في حديثه القدسي "عباد لي يلبسون للناس مسوح الضأن، وقلوبهم أمر من الصبر وألسنتهم أحلى من العسل. يختلون الناس بينهم. أبي يغترون أم عليّ يجترئون. فبي أقسمت لألبسنهم فتنة تذر الحكيم فيهم حيران" رواه ابن عساكر عن عائشة.

وهذه المخالطة لفتيات السوء لا تقل في خطورتها عن مخالطة الطرف الآخر، فهي مخالطة تجر إلى الفساد والفجور تحت ستور مختلفة، وكلها تدفع بالفتاة إلى بؤرة الرذيلة حيث لا عودة بعدها. وهذه في مجموعها ادعاء من تلك الفتاة التي تهيأت

للغواية أنّ لها صديقة ستراجع معها دروسها، او أن صديقتها مريضة، أو ...أو شتى التعلات والأسباب وكلها تحمل الكذب والخيانة، حيث تمضي بها إلى أوكار يتخذها الشيطان مسكناً له، ووقف عليه امرأة باعت نفسها له، فباتت تشتري البنات لتبيعهن لشيطانها المتمثل في أولئك الذين ماتت ضمائرهم وتبلدت أحاسيسهم فباتوا إلى الحيوان أقرب وبه ألصق.

والجميع في هذه الأوكار أتباع للشيطان، وعلينا أن نتخيل ما يقدمه لهم شيطانهم، شيطان الغريزة البهيمية، والخاسر في هذه المواقف جميع الأطراف، ولكن خسارة الفتاة أفدحها، عرضها وحياتها هما الثمن.

وأين الأم من كل هذا؟

أقول وأين الأم القدوة؟ أستغفر الله فلو كانت قدوة لما أصاب ابنتها ما أصابها، القدوة هي أن تحيط نفسها من الداخل بهالة من القداسة والوقار أمام ابنتها مما يحفر في أعماقها ذلك الطهر الذي يحصنها، وتصبح قداسة الأم هي المرآة التي تنعكس فيها حياة ابنتها في مستقبل حياتها بعيداً عن كل إثارة بهيمية..

ذنب الأم أنها غفلت عن ابنتها لحظة كانت هي اللحظة التي تحالفت فيها ابنتها مع الشيطان. نامت عين الأم فسهرت عين الشيطان الذي بات يتمثل لابنتها في وجوه عدة.

وذنب الأم كذلك أنها بأنانيتها قد أسلمت ابنتها إلى صديقات السوء، دون أن تجشم نفسها مشقة السؤال عمن صادقت ابنتها، وهي مشغولة بنفسها حتى لم تبق لها لحظة واحدة تفكر فيها بابنتها ، فكان أن سقطت ابنتها في أنياب ثعالب الحياة من خلال مدعيات الصداقة، يقول رسول الله (ص) "الصاحب رقعة في قميصك فانظر بم ترقعه".

وتخيلوا معي مجتمعاً تعوي فيه الذئاب الضارية، والفريسة فيه هي البنت كيف يكون حاله والأنثى فيه نصفه الفعال؟

تصوروا مجتمعاً تدفن فيه الفضيلة وتنتعش فيه الرذيلة؟ إنه مجتمع ينخر فيه المرض الذي لا برء منه. فالأصل فيه هو الأم، والضحية هي ابنتها، والشيطان من مات ضميره وشرفه فهيئ لافتراس هذه البنت. وصدق من قال:

ربوا البنات على الفضيلة إنها

في الموقفين لهن خير وثـــاق

وعليكمـــو أن تستبين بناتكـــم

نور الهدى وعلى الحياء الباقي

وصدق رسول الهدى "إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أو ضيع" وقال عليه السلام "الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم". وقال (ص) من كانت له ابنة فأدبها فأحسن تأديبها كانت له عتقاً من النار".

وصدق رسول الله

الأم والطفولة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كفى بالمرء إثما ان يضيع من يقوت". فالحديث الشريف يحمل اهتمامات الإسلام البالغة بالطفولة، وهي تعتمد أول ما تعتمد على التربة الأولى التي تنبت فيها، وهي الأسرة وجناحاها الوالدان.

وأطفال اليوم هم عدة الغد وعماد المستقبل. وبمقدار تربيتهم وتنشئتهم وتنمية نوازع الخير فيهم بما فيها من قوة وجرأة واعتداد بالنفس يكون حظ المستقبل منهم. من هذا كله يهون أمام الطفولة كل خطب، ويسهل كل صعب. فهي المرحلة التي تتكون

فيها شخصية الطفل سوية خالية من كل عيب إذا ما أحسن الوالدان تلك التربية وذلك التوجيه.

وواجب الوالدين إزاء أطفالهما عسير خطير يحاسبان عليه أمام الله سبحانه. وهو واجب اجتماعي لا يتحقق إلا بتعاون أجهزة المجتمع جميعها، البيت والمدرسة وأجهزة الإعلام. قال تعالى "يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة".

فالمجتمعان الصغير أي البيت والكبير أي المجتمع هما المسؤولان أمام الله والوطن والضمير. ومن هذه الزاوية أعود الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فقد كان يفرض لكل مولود مائة درهم من بيت المال، بل يفرض لكل لقيط مثل هذا القدر، إذ لم يأخذ الأبرياء من اللقطاء بظلم المجرمين من الرجال والنساء. يقول سبحانه "ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم".

وأول هذه الحقوق للطفل هو رضاعه الذي يجريه الله سبحانه وتعالى حليباً في ثدي أمه.

فواجب الأم إرضاع طفلها إذا تعينت لذلك، بأن لم توجد امرأة غيرها تتولى ذلك، أو كان طفلها لا يقبل غير ثديها، أو كان الأب معسراً لا يستطيع استئجار مرضع ترضع الطفل.

وهذا يشير إلى أمر آخر، هو إن الإسلام لم يجعل الرضاعة إرغاماً للأم تقهر عليه، ولكن تقوم به عن حب ورضى وطيب خاطر، وتجاهد لأجله، فهو يشعرها بعظمة الدور الأموميّ الذي وهبه الله لها، وهي ترى الحياة في طفلها تخلق على يديها.

هذا هو الدور الحقيقي للأم الوالدة المرضع، إما إذا وقع عكس هذا فهو يصدر عن والدة غير سوية، حين تأبى إرضاع طفلها مع تهيئة الظروف لذلك.

من هنا نرى أن المالكية تجبر مثل هذه الام الوالدة على إرضاع طفلها إذا كانت زوجة لأبيه أو معتدة من طلاق رجعيّ، بل إنها تجبر على ذلك حفاظا على حياة الصغير إذا لم يقبل غير ثديها ولو كانت مطلقة طلاقاً بائناً.

نفهم من هذا أن الإسلام قد اهتم بالطفل اهتماماً يعلو كل اهتمام، بل إن مصلحته تتقدم كل مصلحة بما فيها مصلحة الأم، فالرضاعة حق من حقوق الطفل، وهو أول حق ينتظره حين يستقبل الحياة.

وليست هناك سعادة تعادل سعادة الأم وهي تحتضن طفلها، وتضمه إلى صدرها وقلبها بشغف وحنان، ترضعه حليباً هو ملك له، وترقبه لحظة لحظة وهي ترى عظمه الطري يكتسي لحماً، وماء الحياة يورد خديه.

فلبن الوالدة المرضع يجعل الطفل يشتد وينمو ويكبر باطراد ملحوظ، شريطة أن يبتعد عن مصادر العدوى.

وهذا كله يفسره قوله سبحانه في قصة سيدنا موسى حين حرم عليه المراضع وأعاده إلى أمه كي تقر عينها فقال في محكم آياته "وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين" وقال سبحانه "وحرمنا عليه المراضع". ولعل في ذلك سر قوة موسى العضلية التي عرف بها في زمنه.

فعدم إرضاع الام طفلها مع قدرتها على ذلك إثم تحاسب عليه أمام الله سبحانه، فنحن نشاهد في حياتنا الحاضرة أمهات يأبين الإرضاع لأنه يحول دون زياراتهن وروحاتهن، بل يدعي بعضهن أن الرضاعة تشوه شكل صدورهن فيلجأن إلى الحليب الصناعي منذ لحظة ولادة الطفل.

والرضاعة الصناعية هي ما تلجأ إليه الأم العاملة اليوم حتى حين عودتها من عملها.

أما حين تحول أمور صحية دون إرضاع الأم طفلها، فإنه يتعين على الأب إحضار مرضع ترضع الطفل لقوله سبحانه " والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة. وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف، لا تكلف نفس إلا وسعها، لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده" (البقرة: ٢٣٣).

وفي حالة إرضاع الطفل من مرضع غير أمه، فإن أجرة الرضاع تجب على أبيه، لأن رضاعة الطفل هو غذاؤه، وغذاؤه من نفقته.

أما إذا كان الأب فقيراً عاجزاً عن الكسب، أو كان الأب متوفى كانت أجرة الرضاع واجبة على من تجب عليه نفقة الصغير من الأقارب.

ويتسع اهتمام الإسلام بالطفل حتى يشمل مدة الرضاعة، فقال سبحانه في محكم آياته "والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين".

فالآية تشير إلى معلمين، أولهما: أنها تقول: "والوالدات" ولم يقل الأمهات، ويقصد بذلك أن لبن الرضاعة المثالي هو لبن الوالدة الام، وليس لبن المرضع الأم وقديماً قالوا: لبن الأم ملك للابن.

وتحديد مدة الرضاعة بحولين كاملين يدل على وجوب اعتماد الطفل على نفسه في الغذاء الخارجيّ، لان لبن الوالدة في هذه الأثناء يصبح مائعاً فاقداً الكثير من عناصره الغذائية.

وهنا يتوجب الفطام الذي يتم بتشاور الوالدين وتراضيهما حفاظاً على مصلحة طفلهما، إذ إن استبداد أحدهما بالرأي دون الآخر يضر بمصلحة الطفل نفساً وجسداً، وهو الأمانة في ذمة الوالدين والوطن والراعي.

وبمقدار اهتمام أولئك جميعاً بالطفل يكون رقي الوطن ومتانته، فطفل اليوم هو رجل الغد، وهو درع الوطن.

الله الله في النساء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الله الله في النساء فإنهن عوان في أيديكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله".

لقد عني الإسلام بالأسرة واهتم بها أعظم الاهتمام، ووضع لها القواعد التي تكفل لها الأمن والسلام والاستقرار انطلاقاً من قوله سبحانه "وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيرا".

وليس هناك من يجهل الحقوق والواجبات التي نيطت بكلا الزوجين لتمضي بهما الحياة المستقرة التي لا ينفذ من خلالها وهن أو خلل، لإنشاء الأسرة التي تمد المجتمع بلبنات صالحة تستند إلى ما يتوفر لها من أمن وسلام – يربط بين أفرادها.

وبلغ من اهتمام الإسلام بالأسرة أن وضع لها المبادئ والقواعد التي تكفل لها حياتها الهانئة.

وأول هذه القواعد القوامة، قوامة الرجل على المرأة، وهي قوامة رئاسة ورعاية وإشراف، وليس قوامة استعباد وتسخير، وذلك بحكم تكوينه الفطري، وبحكم كده وعمله في تحصيل الرزق الذي ينفقه على أسرته "الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم عاى بعض وبما أنفقوا من أموالهم".

وأوصى الإسلام الرجل بأن يكون حسن العشرة، كريم الخلق، طيب المعاملة، مع زوجه، وأن يحافظ عليها، ويحفظ كرامتها، ولا يتعّمد إهانتها، ولا يقصد إيذاءها، كما نرى عند كثير من الرجال، ممن يظنون أن رجولتهم لا تتحقق إلا إذا أهانوا

زوجاتهم في كل مجلس، وكأن الرجولة رفع الصوت والصراخ وافتعال الهيبة، حتى لا يظن فيهم – كما يعتقدون – اختلال ميزان الرجولة. قال صلى الله عليه وسلم "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي".

وليس هذا فحسب، بل إن الإسلام جعل حسن العشرة الزوجية من الإيمان فقال رسول الله (ص) :" أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله".

وهذا يستوجب من الرجل أن يكون رؤوفا بأهله وبأسرته، فهم أمانة في عنقه يسعهم بقلبه، ويغمرهم بعطفه، ويشملهم بسعة عقله ورحابة صدره، يلاعب أولاده ويداعبهم. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه "ينبغي للرجل أن يكون في أهله كالصبي – أي في الإنس والبشر والسهولة، فإذا كان في القوم وجد رجلا".

خلافا لما نشاهده في حياتنا، فإن كثيراً من الرجال لا يرضيهم أي أمر، ونرى الرجل منهم يلبس ثوب عنترة بن شداد حين يغادر منزله، وثوب أبي زيد الهلالي حين يعود إليه، وإذا سألت عن السبب كان الصمت والعيّ.

فخدماته على أكمل الوجوه مقدمة إليه، وشؤونه معنيّ بها كما يجب بل أكثر مما يجب، فالزوجة قائمة على خدمته وخدمة بيته وأولاده نهاراً وساهرة عليها ليلا، علها ترضي هذا الزوج، ولكن لا سبيل إلى إرضائه.

ورضاؤه البرق الخلب الذي تسترقه الزوجة من بين جنبات نفسه، ولكن غضبه اكثر، وتقلبه أوسع، دونما سبب.

بل إن هذا الزوج لا يكلف نفسه مشقة إبداء بعض الرضى عما تفعل زوجته له، وكأنها إنسانة خلقت مسخرة لخدمته دون كلمة ثناء، تخفف تعبها، أو آلة صماء لا تعي ولا تعقل.

وهذا الزوج نفسه إذا وجد في مجلس من المجالس كان أشد الحاضرين أنسا وأكثرهم حبوراً وأعظمهم انطلاقا. وهذا بلا شك بعيد عن قوله (ص) :"إن لجسمك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا".

فالإسلام قد أعطى المرأة حقها كاملا، وأوجب على الرجل إكرامها، فانه "إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها دخلت جنة ربها".

ومع هذا فإن الرجل يرى دخول المرأة الجنة في غير هذا كله، ولكننا لا ندري بم تدخلها في رأيه، فليته يصرح، ليته يعرف إذن لهان الأمر، انه هو نفسه لا يعرف.

وعلى الرجل واجب إرشاد زوجته إلى الخير، وتعويدها صالح الأعمال بالرفق والحسنى، بطريقة لا يشعرها فيها بالإهانة، فكثيرون يرون في الإرشاد الصراخ، وفي النصح الإيذاء.

والرسول صلى الله عليه وسلم قدوة عظيمة في هذا، ولكن من يقتدي بها، فقد كان عليه السلام وهو الخاشع المتعبد، والقائد الحاكم من افكه الناس مع زوجاته وأحسنهم خلقا. فقد كان يمزح معهن بما يدخل السرور إلى قلوبهن، ويستمع إلى قصصهن. قال عليه السلام "ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم".

وحتى يكون الرجل أبر الناس بزوجه عليه أن يجنبها خطر مخالطة من تشاء، والاجتماع بمن تشاء، فهذه المخالطة تجر إلى البلايا والمصائب، وفيها ينشط الشيطان، ويأخذ في تزيين الفاحشة وفي تجميل الخطيئة، إذ "لا يخلون رجل بامرأة لا تحل له فإن الشيطان ثالثهما".

فهناك من يترك الحبل على الغارب لزوجته، ويتساهل معها فيما يعرض شرف الأسرة للسوء والأذى، ويغض بصره عما يحرم الله فيما يحدث في بيته. وهذا التساهل لا يعد من مكارم الأخلاق، ويخرج صاحبه من زمرة الرجال الذين لهم

حرمة في النفوس، ومنزلة عند الله قال (ص):"أتعجبون من غيرة سعد – أنا والله أغير منه، والله أغير مني".

فهذا ينعكس بدوره على أفراد الأسرة بناتها قبل أولادها، ولا يخفى ما في سيرة الأم من أثر على حياة بناتها.

ومن المبادئ البدهية التي كفلها الإسلام للزوجة النفقة، من غير إسراف أو تقتير. يقول رسول الله (ص) "دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك". صدق رسول الله

اتقوا الله في النساء

قال تعالى "فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله، واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهنّ واهجروهنّ في المضاجع واضربوهنّ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان علياً كبيرا".

لا شك في أننا نعيش في جاهلية أقرب إلى جاهليتنا الأولى، بل إنها جاهلية أمر وأفدح، حيث أظلمت فيها عقول، وتحجرت فيها قلوب تنبض بالآثام في عصر انطلاق الإنسان في رحاب الكون العظيم المسبح لله في عظمته وجلاله.

فقد كثرت أحاديثنا حول موقف الإسلام من المرأة في جميع مراحل حياتها. ومن أدق هذه المراحل تلك التي يقف فيها الرجل من المرأة أو الزوج من الزوجة موقف العداء والاستفزاز والتعذيب النفسي.

والزوج هنا ليس كل زوج، وليست كل زوجة، ولكنه ذلك الرجل الذي يسوم زوجه سوء العذاب ليس لأنها ناشز يرجى تأديبها كما أوجب الشرع، ولكن لأنّ الرجل

بات رهين نزواته النفسية المتغيرة المتبدلة ما بين سأم وملل وكره لا يعرف مصدره.

وكلنا يعرف أنّ الله سبحانه جعل للرجل تأديب زوجه إذا نشزت وأتت ما يكره ويحرم الله. ولكن أن تكون المرأة كما يجب أن تكون من الطاعة، وان تقوم بواجباتها إزاء زوجها خير قيام، ويقابلها الرجل بالقسوة والشدة والتعسف، فهذا ما لا يرضاه الله ولا الرسول ولا الأخلاق، ولا الضمير.

الذنب الهائل الذي جنته تلك الزوجة أنها لا تنجب، لأن الذنب ذنبها – كما يرى مجتمعها – وهم يعتقدون أنها مشيئة الله وإرادته، ولا راد لقضائه سبحانه "ويجعل من يشاء عقيما" (الشورى:٥٠).

وهذه قضية تنسحب على بعض النساء ممن نفذت فيهن إرادة الله لحكمة لا يعلمها سواه سبحانه.

وحكم الإسلام فيها الإجازة للرجل بالزواج الآخر إن هو شاء ذلك، على أن يمسك زوجه الأولى بالمعروف أو يسرحها بالإحسان. قال تعالى "فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان".

وما نشاهده في حياتنا الحاضرة أمرّ من أن يوصف، فمن الرجال من يرى تعذيب هذه الزوجة تعذيباً لا يترك لها فيها بارقة أمل في حياة أو موت، ولا يترك لها فرصة دون أن يوجه لها الإهانة ولاذع القول والسّب والشتم والزجر والضرب،

وإذا سألت الزوجة زوجها عن سبب ذلك أجابها:

اتركيني والحقي بأهلك، لا أريدك زوجة في بيتي.

إذن طلقها أيها الرجل، ولكن لا هو مطلقها ولا هو مكرمها! إنه يعمل على تيئيسها وسحق روحها حتى تبرئه وتحله مما هو ملزم به إزاءها من مؤخر والتزامات، أشهد الله عليها يوم بنى بها.

عن عائشة رضي الله عنها "كان الناس والرجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها، وهي امرأته إذا ارتجعها وهي في العدة، وإن طلقها مائة مرة حتى قال رجل لامرأته: والله لا أطلقك فتبيني مني ولا آويك أبدا.

قالت: كيف؟ قال: أطلقك فكلما همت عدتك أن تنقضي راجعتك.

فذهبت المرأة حتى دخلت على عائشة فأخبرتها فسكتت عائشة حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته.

فسكت حتى نزل القرآن "الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان". قالت عائشة فاستأنف الناس الطلاق مستقبلا، من كان طلق ومن لم يكن طلق".

وليس حل الرجل من التزاماته إزاء المرأة هو السبب الوحيد لتعذيبها، بل إنه قد يلجئها إلى أن تفتدي حريتها بمال قد يكون أكثر مما مهرها به.

ولكن أن يصل الرجل إلى أقسى أنواع العذاب، وهو هجر المرأة في الفراش بلا سبب أو مبرر فهذا هو الكفر عينه بما شرع الله سبحانه.

فهو بذلك يدفع امرأته إلى طريق لا يرضاه، وإلى تفكير يخالف هواه. إنه يلجئها إلى تنكب الطريق الذي رسمه الله ورسوله حيث قال عليه السلام "أيما امرأة باتت هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح". وقال (ص): "لا تمنعه نفسها وان كانت على ظهر قتب".

فما حكم الشرع إذا كان الرجل هو الفاعل هذا كله؟ وهل يتحتم على المرأة والحالة هذه أن تفرض نفسها على الزوج وهو على ما هو عليه من نفسية غريبة ومزاج سقيم!.

حتى الكره الذي يحول دون مباشرة الرجل زوجه فقد حكم فيه الإسلام فقال سبحانه "فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيرا". (النساء:١٩).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للرجل الذي ينوي طلاق امرأته لأنه لا يحبها: أو كل البيوت يبنى على الحب، فأين الرعاية والتذمم؟

فجر الخلق، وتمردت فئة ألقت كتاب الله خلف ظهرها وماتت الرعاية والتذمم في قلوبها.

وقد بين الشرع الأمور التي تعدّ فيها المرأة ناشزاً تستحق بعدها هجر زوجها لها في الفراش فقال (ص): "ألا واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان عندكم (أي أسيرات) ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فان فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا. إلا أن لكم على نسائكم حقا ولنسائكم عليكم حقا. فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم من تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن".

ولا يكتفي مثل هذا الرجل بهذا الهجر الذي يسبب للزوجة كل الأذى والعذاب والمعاناة والقهر، ولكنه يقوم بالضرب المبرح الذي نهى عنه الإسلام، وهو بهذا يطبق شرع الله وسنة رسول الله تطبيقاً مزاجيا يصدر عن نفسية غريبة، ونية فاسدة، وقلب متحجر.

فالضرب الذي تذكره الآية الكريمة والأحاديث الشريفة هو الضرب غير المبرح. قال رسول الله (ص): "اضربوا النساء إذا عصينكم في معروف ضرباً غير مبرح".

قال عطاء: قلت لابن عباس ما الضرب غير المبرح؟ قال: بالسواك ونحوه.

وأفسر هذا بمفهوم عصرنا في نطاق الشرع لنرى إلى أي حد يتجاهل كثيرون من الرجال مبادئ شرعهم. فإنه لا يحل للرجل أن يضرب زوجه بعصا أو يلطمها على وجهها، وهذا بطبيعة الأمر لا ينسحب على جميع النساء.

كما أن الرجل الكامل الرجولة لا يرضى لنفسه هذا المسلك، اقتداء برسول الهدى (ص) فانه لم يمد يده على امرأة له قط، بل إنه لم يشتم امرأة له قط، وانه لم يعرف ذلك عن الصحابة قط.

ومد الإنسان يده على امرأته – وان كان له هذا حقا – في بعض الأحوال الشاذة النادرة لا يقدم عليه إلا لئيم. قال رسول الله : "ما أكرم أهله إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم".

ومما يلاحظ أن المرأة لها حق الطلب إلى القاضي في تأديب زوجها إذا كان يسيء معاملتها، ولا يعاملها بالمعروف، ويعظه القاضي. فان لم يجد الوعظ أمر لها بالنفقة، ولا يأمر له بالطاعة وقتا مناسبا لتأديبه، فان لم يجد ذلك كله كان له عقابه بالعصا، وذلك كله على مذهب مالك، منعاً لشطط بعض الرجال.

أما نشوز الرجل فقد قال فيه سبحانه "وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح، وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا" (النساء: ١٢٨).

والنشوز هنا هو التباعد، والإعراض هو ألا يكلمها الرجل ولا يأنس بها، وهذا يعني أنّ الأمر قد بلغ حداً بالغاً بينهما، فإما الصلح وإما تطبيق قوله سبحانه "وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته، وكان الله واسعاً حكيما".

فالله سبحانه كفيل بعباده رحيم بهم، هو خالقنا وهو مولانا، إنه نعم المولى ونعم النصير.

المرأة كالضلع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن المرأة كالضلع إن ذهبت تقيمها كسرتها، وإن تركتها استمتعت بها".

الحديث الشريف تقدمة إلى حديثي، وهو في مضمونه تأييد رسول الله (ص) للمرأة، وإن بدا في ظاهره خلاف ذلك.

وهو يصور للرجل واقع الحياة الزوجية كما هو بدون تزيين أو زخرفة، بعيداً عن الأحلام والأوهام التي يصورها خيال الخياليين منهم.

وفي هذا يقف الحديث الرجل على أن في هذه الحياة ما يسوء وما يسر، ويصارحه بالحقيقة كاملة، ليوطن نفسه عليها.

وعليه من هنا أن يمسك المرأة على ما هي عليه دون أن يطمع في تقويمها بالشدة التي قد تكسرها "إن ذهبت تقيمها كسرتها". وبهذا وحده يضمن للحياة الزوجية الهناء والاستقرار.

وبذلك كان توطين النفس على هذا العوج هو سبب استمتاع الرجل وهناءته في حياته بإغضائه عن بعض معايب المرأة التي لا بد من أن يكون إلى جانبها كثير من المحاسن. يقول رسول الله (ص): "لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر".

ومع ذلك فإن كثيرين يتجاهلون هذا المعنى، وينظرون إلى المرأة نظرة فيها الكثير من العنت والتسلط، لأنهم اعتقدوا خطأ أنها ضلع أعوج ينبغي تقويمه بالشدة، وهم في هذا يعتمدون شتى الأساليب، وهي في ظاهرها رأفة ورحمة، وفي باطنها قهر وقسوة.

وليس هناك من يجهل أن الذكر والأنثى هما إنسانان في ميزان الحياة. لها ما له من الحقوق وعليها ما عليه من الواجبات، فواحدهما يكمل الآخر دون أن يبغي أحدهما أو يجور.

هكذا حتى تكتمل الدورة الحياتية التي شاءها الله سبحانه.

ولكن يشاء سوء طالع بعض الرجال أن يصابوا بالغرور القاتل، عندما يرى الواحد منهم أن شخصيته في المنزل لا تكتمل إلا إذا اعتد بنفسه إلى حد الشذوذ، يميزه جبين معقد، حين يدخل بيته، وفم يقذف بأوامر لا ترد.

وهو يأنف من كل شيء حتى مما هو فرض لازم عليه، وهو مداعبة أطفاله. أما حين يكون خارج منزله فهو نعم الرجل الأليف الودود المجامل المداعب.

يالله! أين هؤلاء من سيد الخلق رسول الله (ص)، الرجل الحق والشخصية الكاملة في سلامة طبع ورقة معاملة، وحسن عشرة، وسماحة ومودة ولين جانب وخفض جناح.

سئلت عائشة رضي الله عنها: ماذا كان رسول الله يفعل في بيته؟ قالت: يكون في مهنة أهله. أي خدمتهم. وكان يقول "خدمتك زوجتك صدقة". و "وخيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي".

وكان (ص) يغمر بيته بالبشاشة والإيناس والرفق، ويقول "إن الله عز وجل ليعطي على الرفق ما لا يعطي على الخرق (الحمق). وإذا أحب الله عبداً أعطاه الرفق. وما من أهل بيت يحرمون الرفق إلا حرموا الخير كله".

وكأن كل ذلك الرفق والرأفة والرحمة والبشاشة يذهب حين يدخل بعضهم إلى بيته، ويستحيل بعدها إلى الحاكم بأمره والآمر الناهي.

عليه أن يطلب وعلى أهل بيته أن يطيعوا الطاعة العمياء التي تقول بلسان حال الرجل: أنا الرجل، وحين يذكر الأنا هذه، فذلك يعني كل شيء. أن تتوارى المرأة في ثناياه، أن تتلاشى ولا يبقى لها أثر. هكذا يريد بعضهم ممن أصيبوا بوهن في ضمائرهم فتسلطوا وتجبروا بذلك الضلع الذي يزيدونه اعوجاجاً بتعنتهم. "خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين: (النمل:١٤).

والحياة المعيشة تجسد ذلك العنت والغرور في قصص لا أقصدها هنا لذاتها، وإنما لما ترمي إليه.

قالوا عجباً لها إنها امرأة فريدة من نوعها بإخلاصها ومحبتها، فهي تخطب لزوجها امرأة لتنجب له ما حرمه من زوجه الحاضرة.

ولن أبحث في قصة الزواج، ولكن في دور المرأة هذه. فظاهر الأمر يقول: هي امرأة محبة لزوجها حباً غير موجود إلا في الأساطير.

أما واقع الحال فهو ما يمارسه معها زوجها من أنواع المراوغة والقهر والعنت ليقهرها ويرغمها على أن تقوم بدور الخاطبة. ويصيب القهر أعمق أعماقها وتصنع له ما أراد. ليقال في الظاهر إنها أسطورة في الإخلاص. ولكنه عنت الرجل.

حكاية أخرى تقول: امرأة تجهض في شهور حملها الأولى ويقف زوجها إلى جانبها، والجميع يقول إنه مثال الرحمة والعطف والمحبة لزوجته. أو هذا هو الظاهر. أما صادق الحال فهو يقول: هذا الرجل يبيح لنفسه السهر خارج بيته حتى الثانية والثالثة صباحاً وحين تعاتبه زوجته على ذلك يأخذ في إهانتها وشتمها وركلها بما وسعه جهد حتى تجهض.

هكذا! منطق سليم، أضع فيه الرجل أمام ضميره وأسأله: ماذا أنت صانع لو سهرت زوجتك بدون إذنك خارج بيتها حتى العاشرة؟ ولن أقول الثانية أو الثالثة.

الجواب معروف: لا شك في أنك ستعقد لها اجتماعاً عاجلاً طارئاً تستدعي إليه أهلها، وتقف أمامهم موقف الخطيب المفوه تسفه أمرها وشأنها.

إذن كيف يزن الرجل المرأة في ميزان لا يزن هو نفسه فيه نفسه. "وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه".

وماذا بعد عن ذاك الذي يحرم زوجته أبسط حقوقها – حق المأكل اليسير الذي تطلب فيه الزوجة الخبز – يالله، الشيطان أعمى قلبه فحرمها من هذا المطلب "قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا" (مريم:٧٥).

وينتهي الأمر بترك الزوجة بيتها وأطفالها إلى بيت أهلها مطالبة بالطلاق.

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: "ما أنفق الرجل على أهله فهو صدقة، وان الرجل ليؤجر في اللقمة يرفعها إلى فم امرأته": و "ان من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا الهم في طلب المعيشة". وقال عليه السلام: "إذا خرج العبد في حاجة أهله كتب الله تعالى له بكل خطوة درجة فإذا فرغ من حاجتهم غفر الله له".

وصدق رسول الله

النساء شقائق الرجال

قال تعالى "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا".

لقد جاء الإسلام بالحق، ومن الحق أن تكون الروابط بين الرجل والمرأة روابط تأليف وتحبيب لا أغلال وإسار وإذلال.

فعلى هدي من الروابط تكون الأسرة اللبنة الأولى في الصرح الاجتماعي، فإذا هي صلحت وحسبت للمشاعر والأحاسيس حسابها عند تقرير العلاقة بين الرجل والمرأة كان ذلك إيذانا بقدرة هذا المجتمع على الصعود في معراج التقدم، وهو واثق من سلامة وحداته الصغيرة التي هي الأساس في تحقيق ما يصبو إليه من رفعة.

وأكد القرآن الكريم في كثير من مواقفه أنّ الرجل والمرأة خلقا من نفس واحدة، وهذا يعني أن تآلفهما قديم، وهو تآلف روحي لا تآلف جسدي فحسب ينقضي بانقضاء أوطار الجسد. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " النساء شقائق الرجال". وبتزاوج النفسين الرجل والمرأة تتكون الأسرة السليمة التي هي أمانة في ذمة الرجل، وعليه أن يتقي الله فيها وفي مجتمعه!.

والتقوى هنا العمل والنضال الذي يفيء بخيراته على الجميع، وهي كذلك مخافة الله تعالى التي تضعه دائما أمام مسؤولياته، وهذه تضعه أبداً في مكان الصدارة التي يستحقها الرجل الحق.

والقرآن حين يخاطب الاثنين الخطاب الواحد، فذلك يعني أن لكيلهما من الحقوق والواجبات ما يجعلهما في موضع التكامل، دون أن يبغي أحدهما على الآخر.

والبغي في ميزان الحياة يصدر عن الجانب القوي، حين يغشى الظلام قلبه، ويغلِّف جوارحه، ويبتعد به عن الطريق السوي الذي يكفل الأمن والسلام.

فكيف إذا صدر البغي عن قلب الرجل المختص بالقوامة، وهذه تميزها إعطاء الرجل المرأة حقوقها المادية والمعنوية والنفسية كاملة غير منقوصة.

وهي حقوق تبنى على احترامها وتثبيت كيانها وعدم إهانتها من خلال ضبط نفسه وكبح جماح غضبه الذي يثور في كثير من الأحيان لأتفه الأمور وأوهى الأسباب لتوهمه أن من حقه أن يثور ويغضب – ويوجه إلى الزوجة ما تكره، لأنه فرد الله المختار، كما يدعي المدعون منهم.

ولبعض الرجال مواقف يجورون فيها ويبغون، ونحن نسمع الواحد منهم يفاخر ويباهي أمام زوجه بعلاقات قلبه المراهق في حاضره.

عجباً للرجل، وهو ينقض وينقض ميزان الرجولة، وماذا يكون موقفه لو فجرت المرأة فجوره هذا وأخذت تباهي بما يباهي، وتفاخر بما يفاخر؟

وتصوروا معي رجلا تعلن زوجه أمامه ما يعلنه!!

عندها يحيل دنياها إلى جحيم، ويرد حياتها قهراً، بما يصبه عليها من نقمته وفجوره وثورته وتمرده بإتيانه ما لا ترضى عنه.

وغرضه في هذا أن تستسلم الزوجة، وما أضعفها حين تستسلم فهي تعلم مسبقاً أن عليها ألا تعترض على ما تسمع وترى، وإلا فإن ذلك كفيل بأن يجر عتوّه وجبروته.

وليس لها إلا أن تردد في أعماقها، بلسان قلبها، حسبي الله، لقد ذهب الحياء، فإن من لا يستحي من نفسه لا يستحي من الله.

عن ابن مسعود قال رسول الله (ص): "استحيوا من الله حق الحياء، قلنا: إنّا نستحي من الله يا رسول الله – والحمد لله – قال ليس ذلك، الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى. ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، وآثر الآخرة على الأولى. فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء".

فأين حياء ذلك الرجل؟

نفهم أنه قد يباح له أن يفاخر ببطولاته العاطفية وجولات مراهقته النسائية قبل أن يتزوج، ويصبح في عداد الرجال، ولكن أن يفعل هذا وله من الأولاد والبنات ما يردعه ويقرعه فذلك ما يعيبه عليه الشرف والضمير والرجولة والتقوى.

وإن جر هذا إلى شيء فهو يجر إلى حرمان الرجل زوجه حقها المشروع. وهذا الحق هو المؤانسة والإمتاع، الذي يحرمه الزوجة، لأنه يفرغ طاقاته كلها في جولاته القلبية الخيالية خارج بيته، حتى إذا دخل هذا البيت كان جسداً بلا روح، ويكتفي منه بما يهيأ له من طعام أو شراب، وبعدها ينطلق في الحياة.

وقد كره الإسلام من الرجل هذا الظلم في حق هو من ألزم حقوق المرأة، والإحجام عنه إعنات لها وإيهان لوشائج المحبة، حتى وإن كان هذا الإحجام لصلاة أو صيام أو عبادة.

اشتكت زوجة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت: يا أمير المؤمنين إن زوجي يصوم النهار، ويقوم الليل وأنا اكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة الله عز وجل. فقال لها: نعم الزوج زوجك.

فجعلت تكرر عليه القول، ويكرر عليها الجواب. فقال له كعب الأسدي: يا أمير المؤمنين، هذه المرأة تشكو زوجها في مباعدته إياها عن فراشه.

فقال عمر: كما فهمت فاقض بينهما، فلما جيء بزوجها قالت المرأة للقاضي:

يا أيها القاضي الحكيم رشده

ألهى خليلي عن فراشي مسجده

زهده في مضجعي تعبده

فاقض القضا كعب ولا ترده

نهاره وليله ما يرقده

فلست في أمر النساء أحمده

فقال زوجها:

زهدني في فراشها وفي الحجل

أنني امرؤ أذهلني ما قد نزل

في سورة النحل وفي السبع الطول

وفي كتاب الله تخويف جلل

فقل كعب:

إن لها عليك حقا يا رجل

نصيبها أربع لمن عقل

فأعطها ذلك ودع عنك العلل.

فمتى يعقل المؤمنون، وفضل الرجال على النساء ليس في كلمة الرجولة، ولكنه فضل يعود إلى اعتبارات خلقية لا يد للرجال والنساء فيها.

فالفضل هو في زيادة القوة والقدرة والخبرة بوسائل الحياة، والصبر على أعبائها، ومواجهة الصراع فيها، لأنهم مخلوقون لذلك، مزودون بالاستعداد له، ومنوط بهم من التكاليف والواجبات كفاء ما أعطاهم من القوة والطاقة.

وهذا الفضل من الله يجب أن يقابل بالرضا والتسليم، وليس كل رجل أفضل من المرأة، فقد تكون امرأة خيراً من ألف رجل على ضعف بنيتها وقوتها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب".

صدق رسول الله.

الإسلام والطفولة

نسمع بين الفينة الأخرى عن أعياد جديدة، وأيام بل أعوام يحتفل بها العالم، ويتخذها أصحابها شعارات يدلون بها عن مدى تقدمهم، أو هكذا يخيل إليهم، وهم في هذا معتقدون أنهم اسبق البشر إلى ما يظنونه اكتشافاً من الاكتشافات الحديثة التي تعود عليهم بصفة التحررية والتقدمية.

ومن هذه الأعياد بل الأعوام عام الطفل الدوليّ، الذي بدأه الغرب فكرة ومنهاجاً، احتذاه عالمنا العربيّ والإسلاميّ، حتى بتنا نظن أن الطفل أو الاهتمام بالطفل أمر جديد.

وهذا يحمل في ثناياه معلماً خطيراً مؤداه أننا غرباء عن الإسلام، بل إن الإسلام غريب بيننا.

والغريب في ذلك أنّ الاهتمام بالطفولة جوهر في مبادئ الدين الحنيف. فقد حمل كتابنا العزيز وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مظاهر العناية في جميع مراحل حياة الطفل منذ يكون جنينا في بطن أمه إلى أن يضحي وليدا يتدرج في مدارج النمو حتى يكتمل ويجتاز مرحلته الطفولية، ومستقبلاً فجر الصبا وإشراقة الفتوة. عندها يكون قد تهيأ لاستقبال الشباب والحياة إنساناً قوياً نفساً وعقلاً وجسدا.

وقد بلغ من حرص الإسلام على الطفل أن نبه إلى حسن اختيار اسمه، حيث لا يملك الطفل من الأمر شيئا قال صلى الله عليه وسلم:"من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه".

والطفل من اعظم الأمانات التي كلف بها الوالدان، وحقه عليهما ملزم لهما ببذل كل ما من شأنه أن يجعل منه إنساناً قوياً في روحه وجسده.

فقد مضى الإسلام مع الوالدين يرسم لهما ويوضح أدق خصوصيات الطفل بقوله تعالى"حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين". وليس هذا فحسب وإنما يحدد

مدة رضاعة الطفل تحديداً يحمل الحكمة البناءة لهذا الطفل فقال سبحانه "حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهرا".

ففصال الطفل أو فطامه مرهون باتفاق والديه، حتى يتم الأمر على وجه المصلحة لطفلهما حيث لا ينفذ إليها رغبة أحدهما أو هواه لقوله سبحانه "فإن أرادا فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما".

وفي التراضي تشاور وتدارس لمصلحة الطفل قبل أي مصلحة لما في رضاعه من مناعة وصيانة وقوة له.

وتشدد الإسلام أكثر من ذلك، إذ قد يفكر الوالدان في فطام طفلهما قبل انتهاء مدة الرضاعة التي حددها الله سبحانه لحكمة مشروعة، "والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين". عند ذلك يتوجب إيجاد مرضع ترضع الطفل فقال سبحانه "وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى".

بمثل هذا التحرج والتشدد والرأفة مضى الإسلام في تربية الطفل، ملزماً الأبوين بحق إنشائه النشأة القويمة حيث إنه"ما من مولود إلا يولد على الفطرة، وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه".

وإذ يجتاز هذا الطفل هذه المرحلة الأولى من حياته فإن على والديه أدباً آخر من الرعاية والعناية والتأديب والتقويم، متمثلا في الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر فقال (ص): "مروهم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع".

وبالصلاة تستقيم حياة الإنسان منذ طفولته حتى كهولته، وتحيطه بسياج لا ينفذ منه وسوسة.

ويتبع هذا تأديب آخر، وتعليم يبني عقله ونفسه وجسده، ويجعل منه الإنسان القوي الذي يستقبل الحياة برباطة جيش لا يهن مع تقلباتها.

روى الحافظ أبو نعيم أن النبي (ص) قال لمولاه أبي رافع "ما مالك يا أبا رافع؟ قال أبو رافع: أربعون ألفاً وهي لله عز وجل.

قال النبي: لا ! أعط بعضاً وأمسك بعضاً وأصلح إلى ولدك.

قال أبو رافع: أو لهم علينا يا رسول الله حق كما لنا عليهم؟

قال نعم! حق الولد على الوالد أن يعلمه كتاب الله عز وجل والرمي والسباحة وأن يورثه طيبا".

وقال عليه الصلاة والسلام "ما نحل والد ولده من نحلة أفضل من أدب حسن".

وإلى جانب ذلك فإن الإسلام لا يغفل التنبيه إلى أسلوب هذا التأديب، وتلك التربية التي يلزم بها الوالدين إزاء طفلهما، وهي تربية متدرجة بتدرج الحياة فقوله (ص) "أدبوا أولادكم بغير أدبكم، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم".

من هنا فإن تأديب الطفل يمر في ثلاث مراحل:

أولها التربية الأولى التي لا يستطيع الطفل أن يقوم فيها بحاجاته.

وقوام هذه التربية أن ينشأ الطفل بين أبويه يستمد منهما الحنان والعطف والرعاية في المأكل والمشرب والملبس، وهذا من شأنه أن ينمي في الطفل، شتى العواطف، ومختلف الأحاسيس التي تعمل فيه ما يعمل الماء في البذرة في الأرض.

وثانيها: ولاية التربية والتهذيب، وهذه تكون أفعل ما تكون في ظل الحماية القوية والرعاية المتينة التي تحتاج إلى شخصية متماسكة في الوالدين، وهذه تمضي بالطفل في طريق تعبده له سلطات الأب العطوف وحنان الأم. وبمقدار تكاتف الوالدين على حماية الطفل، وإشعاره بأنه محور حياتهما يكون استواء شخصيته ونجاحه، ويحميه من العقد والانحرافات التي تطيح بحياته.

أما ثالث هذه المراحل فهي الولاية على المال، وتكون في حالة إصابة الطفل بعاهة تحول دون التصرف السليم بماله.

وإذا راعى الوالدان أصول هذا التأديب عمل ذلك على تنشئة أطفال برآء من كل نقص في أجسادهم ونفوسهم. ومرد هذا كما نعرف هما الوالدان. الأب بشخصيته وسعيه على رزق طفله، والأم بحنانها وبذلها وتفانيها، واستقرارها إلى جانب طفلها ما وسعها ذلك، فانه يشعره بأهميته وكيانه بما يدعم ثقته بنفسه وقدراته وطاقاته التي تحوطها المودة والرعاية والرحمة.

وقوله صلى الله عليه وسلم "ريح الولد من ريح الجنة" خير مؤكد على حكمة التربية الإسلامية، هذا إذا تمكن الوالدان من تأدية رسالتهما على أكمل الوجوه، حين يتخذون من رحمة رسول الهدى رحمة لهم. فقد "رأى الأقرع بن حابس النبي (ص) وهو يقبل ولده الحسن فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم فقال: "من لا يرحم لا يرحم".

وقد أوجز الرسول صلى الله عليه وسلم في أبلغ عبارة مراحل تأديب الطفل فقال: "الغلام يعق عنه يوم السابع، ويسمى ويماط عنه الأذى. فإذا بلغ ست سنين أدب، فإذا بلغ سبع سنين عزل فراشه، فإذا بلغ ثلاث عشرة ضرب على الصلاة والصوم، فإذا بلغ ست عشرة زوجه أبوه، ثم أخذ بيده وقال: قد أدبتك وعلمتك وأنكحتك وأعوذ بالله من فتنتك في الدنيا وعذابك في الآخرة".

وبعد فماذا بقي للغرب يدّعي السبق فيه. فنحن بدأنا، ولا بد من أن نعود، حين نعود إلى كتابنا الحفيظ، "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون".

صدق الله العظيم

وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة

شاءت شريعة اللطيف الخبير أن تكون الزوجية سكينة ومودة ورحمة.

والحق الأصلي فيها حل العشرة بين الزوجين وحل ما يقتضيه الطبع الإنسانيّ مما هو محرم إلا بالزواج لقوله تعالى: "والذين هو لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين".

ويتبع هذا الحق الأصلي حقان آخران مشتركان بينهما هما حرمة المصاهرة والتوارث بين الزوجين. فإن العشرة لما حلت بين الزوجين ربطت بينهما لحمة تشبه لحمة النسب أو أقوى، ثم ربطت بين أسرتيهما برباط المصاهرة، فصارتا كأنهما أسرة واحدة. ولذلك ثبتت بينهما حرمة المصاهرة.

هذا هو الأصل، وكل ما عداه فهو إما باطل أو شاذ. وكلا الأمرين بعيد عن روح الدين وجوهره.

ما تقدمة تقدمة للحديث هنا، وهو أمر سبق أن تحدثنا فيه كثيرا، لأنه يتخذ في حياتنا صوراً كثيرة وإن كان مضمونه واحدا.

فالحقيقة التي نحياها تقول خلق الله سبحانه الزوجين الذكر والأنثى، وهما في مقياس الخليقة إنسانان، ذكر وأنثى.

وحين يشاء الله أن يتحد الزوجان فهذا يعني أن تجمعهما السكينة والعطف والرحمة والألفة والمودة لا العنت والشطط والجور.

كائنان اثنان، الذكر والأنثى ومنهما تكون الحياة.. في الأبناء والأحفاد، حتى تعمر الحياة وتمضي ضمن سنة الله وتدبيره دون خلل.

ولهذه الحياة مسيرها ورئيسها.. والمسير هو الرجل، لأنه الأقوى في عرف الخليقة والحياة.. وهذا يدفع بعضهم إلى استغلال هذه الرياسة والقوة فيما يحرم الله ويغضبه.

وقد يقول قائل: وهل الرجل هو الظالم دائما. ونقول قد تكون المرأة هي الظالمة في بعض الأحيان، ولكن المقياس الحقيقي هو أنّ الرجل هو الأقوى، وهو المفضل على المرأة درجة

" وللرجال عليهن درجة". والشيء الطبيعي في صدور الظلم هو أنه من الجانب الأقوى دائما.

فمهما ظلمت المرأة فلا بد من أن ينهار ظلمها ويتهاوى أمام قوة الرجل النفسية والعقلية والخلقية. ثم إن أموراً كثيرة تحول دون تمادي المرأة في ظلمها: أولها تكوينها الطبيعي الذي يؤهلها للأمومة. أي أنها مجموعة المشاعر والعواطف التي تكون الأمومة. وهذه تتنافى تماما مع أي قسوة قد تصدر عن المرأة عرضا.

من هذا المفهوم نؤكد أن الرجل يبقى هو الرجل والمرأة تبقى هي المرأة. طرفان يكمل أحدهما الآخر دون بغي أو جور أو انتقاص. وفيما عدا هذا فهو إخلال بسنة الله في خلقه.

عجبا لهذه الحياة حين يختل فيها مقياس من مقاييسها. اذكر هنا صوراً أو بعض صور لصنيع الذي أعطي الرياسة والدرجة.

خرجت زوجة من بيتها لزيارة أهلها وحين عادت إلى البيت.. إلى بيتها منعت من الدخول إليه، لان زوجها قد أغلقه بالمفتاح وحين رجته الدخول، بل حين توسلت إليه أن تدخل قال لها لا معرفة بيننا ولا صلة، عودي من حيث أتيت.. وعادت.

واذكر قصة أخرى قبل أن أعلق على ما ذكرت.. فقد حدث سوء تفاهم كعادة الأزواج بين ذينك الزوجين فكانت الخاتمة أن غضبت الزوجة وتركت بيتها

إلى دار أهلها. فما كان من الزوج إلا أن أقفل الباب من الخارج بأحكام ليمنع الزوجة من العودة إلى بيتها في حالة غيابه.

هكذا.. يا لله لسنا على أي حال في عالم عاقل، كل ما حولنا يوحي بالخلل. إنه خلل ما.. ولكن أسأل الرجل وكذلك المرأة سؤالاً واحداً. لمن تكون الدار التي يهيئها الرجل حين يبني بزوجه؟ أليست الدار هي دار الزوجة ما دامت على ذمة زوجها؟ إذن لماذا تخرج هي من دارها حين يحدث أي صدام أو أي سوء تفاهم؟ الشرع الحكيم يقول الدار للزوجة وعليها ألا تتركها حتى لو طردها منها زوجها..

أسهل على الرجل أن يترك داره إلى حيث يشاء، ثم.. يعود إليها حين يثوب إلى رشده أو يثوب إليه رشده، ليدرك أن الزوجة تبقى في انتظاره مهما حدث في حياتهما، إلى أن يعقل هذا أو يبقى في الدار مع زوجه، وهذا بلا شك يعجل بإنهاء الخصام وعودة المياه إلى مجاريها.

أما أن تترك الزوجة بيتها كلما عن لهما أن يتخاصما فهو حال طويل، لأن الحياة معهما مليئة بمثل تلك المشاحنات التي تزيد بلا شك من توثيق الروابط في المستقبل، هذا إذا أحسنت الزوجة التصرف وحكمت عقلها فيما يجب عليها أن تصنع! بقي أن نعرف أمراً هو أن فعل هذا الرجل أو ذاك إن هو إلا رد فعل يقيني لما هو في يقينه واعتقاده في أن الدار هي دار الزوجة ما دامت في عصمته وإلا لما أحكم إغلاقها بوسائل متنوعة خوفاً من هذه الزوجة.

فإما أن يعترف الرجل بينه وبين نفسه بهذه الأحقية للزوجة، وإلا فإن الأمر بيده في تسريحها حين لا يستطيع إكراه نفسه على العيش معها. ولكن بالمعروف "فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف".

ولكن ما يشغل الفكر في مثل هذه الحالات هو: كيف يكون شعور الرجل حين يغضب زوجه ويرغمها على هجر دارها وأولادها؟

لا اعتقده يهنأ في منامه لأنه لم يعدل فيأمن فينم. ولن يقال فيه بحال ما قيل في عمر بن الخطاب "عدل فأمن فنام".

ومهما طال هذا الهجر أليست النتيجة أنه الخاسر حين يخسر أولاده الأمن والحنان والمحبة؟.

أليس هو الذي سيأخذ زمام المبادرة مرات ومرات بإرسال الوفود إلى زوجه لتعود؟

أليس هو الرابح لو أعادها والخاسر حين يهدم حياة أولاده وحياته ويدمر أمنه وهناءه؟

بل إنه ليس من شك في أن ما يقدم عليه مثل هؤلاء الرجال هو توهمهم في أن الناس جميعهم يحيون سعادة يفتقدها هو..

هكذا وهو يجعل بل يتجاهل أن حيطان الناس جميعا تخفي وراءها مشاكل أمرّ وأدهى مما يعرض له، ولو بحث في الأمر وتقصي لحمد الله سبحانه ألف مرة لأن حياته مع ما فيها أيسر مما يظهر الناس له، وهذا يعطيه القناعة الشاملة التي يفتقر معظم الناس إليها.

عند ذلك تساعده قناعته تلك في القيام برياسته قيام الشفيق الرحيم الودود لأهل بيته وأولاده، فيسلك معهم بمخافة الله، ويعاملهم بتقوى الله متسلحاً بالصبر. "وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة".

وصدق الله العظيم

الرجال قوامون على النساء

قال تعالى "الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم:. (النساء:٣٤).

حديثي هنا حول هذه الآية الكريمة، حول مفهومها ومضمونها من الزاوية الإنسانية المرتبطة بالمجتمع، بالحياة، بالنساء اللواتي أوصى الله بهن في كتابه العزيز في سورة كاملة هي سورة النساء، ويؤكد ذلك السنة النبوية المطهرة.

والآية الكريمة في إطار واقعنا تتحدث عن الرجل الرجل، بكل ما تعنيه هذه الكلمة في جوهرها لا في ظاهرها. فالآية تقول الرجال قوامون على النساء وليس الذكور قوامين على النساء. فكل رجل ذكر ،وليس كل ذكر رجلا. فالذكر قد يكون طفلاً وصبياً ويافعاً وأحمق وغبيا ومجنونا، وهذا كله لا يعني الرجولة في شيء. لان القوامة على النساء لا تكون في واحد مما ذكرت.

الرجولة إذن شيء آخر، الرجولة التي حددتها الآية، وربطتها بالقوامة هي الخلق، التقوى، الشهامة، المروءة، النخوة، الصفح، النضج العقلي والعاطفي، الحزم والعزم، الرزانة، الجرأة، القوة النفسية التي لا تستسلم للنزوات، القوة النفسية التي لا تتخاذل في حق من حقوق الله، ولا تتنازل عن حق من حقوق النفس في عزتها وكرامتها.

هذا كله يكون رجل الآية الكريمة حتى يكون بحق قواما على المرأة، قائما على شؤونها في حدود رجولته، دون أن يخل بها شيء. فالرجولة لا وسط فيها،فلا نقول هذا رجل، وهذا شبه رجل، فإما الرجل والرجولة، أو لا رجل ولا رجولة على الإطلاق.

وهذا كله يتحقق عملا، ويتأكد فعلا، ويتجسد سلوكا، حين يولى الرجل أمر الأنثى، سواء كانت بنتا أو زوجة أو أما. ولن أتحدث هنا عن الأنثى بنتا أو أما ، فان

الرجل إزاء هاتين يجاهد ما أمكن، حتى يكون عند مستوى الرجولة في معاملتهما، والإحسان إليهما شرعاً وخيراً وصلة رحم. استمراراً لمشاعر أصيلة دفينة في عروقه إزاءهما، فهما تجسدان عملية الاستمرارية في حياة ماضية مرتبطة بالمستقبل ودافعة إليه، بكل ما في هذه العملية من روابط صنعتها أول عاطفة يحسها الرجل، عاطفة الرحمة والحنان والشفقة.

أما حين يصل الرجل إلى مرحلة الرجل الزوج.. فإنه يصبح شيئاً آخر أو إنساناً آخر.. هنا.. هنا يختل شيء ما في تلك الرجولة، ولا بد من أن يحدث مثل هذا الخلل- كما يعتقد الرجل ومن حوله – فالزوجة تعني أمراً آخر، إنها تعني المنافسة الغريبة التي تطفلت على حياة أسرته – كما يوهمونه – فعليها من هذا المنطلق أن تكون الضيفة التي لا حق لها في المناقشة، فإن لها حقوق الضيفة، ولكن عليها واجبات هي أضخم بكثير من تلك الحقوق التي تقدم لها. وعلى هذه الضيفة – كما يسمونها – ألا تناقش في أمر يتعلق ببيتها، لان بيتها ليس لها – كما يقولون – وإذا قررت مسألة، كان عليها أن تكون بعيدة عن الصورة، وإلا فان إقامتها بينهم لن تطول – كما يرددون – والذي تزوجك يتزوج غيرك – كلام كثير كثير لا يرتبط بمنطق ولا يخضع لعقل. ويعتقد الجاهلون أن الشرع أباح للرجل مثنى وثلاث ورباع، يتحدثون في القشور، ويتركون الجوهر، وهم في ذلك ظالمون للشرع، فالشرع فيما أعتقد حدد الزواج بواحدة وقيده بذلك لأنه ربط المثنى والثلاث والرباع بشرط العدل والإنصاف، فأين الرجل العدل؟ وأين الرجل المنصف؟ بل أين العدل في حياتنا، وأين الإنصاف؟ "فإن خفتم إلا تعدلوا فواحدة".

من هنا .. من هنا نسي الرجل تكريم الله له بالقوامة مع الرجولة، فبغى وطغى وتكبر وتجبر. وما أمر طغيان الرجل إذا طغى، وما أقسى تجبره إذا تجبر، فمع ذلك الطغيان، ومع تلك القسوة المفتعلة تميع الرجولة في نظره، وتتداخل مقوماتها بعضها ببعض، حتى تستحيل إلى صورة أخرى ليست من الرجولة في شيء، بل

هي شيء اسمه التحدي والظلم والتجبر والاستهانة بتلك الإنسانة التي أضحت له نصيباً وقدراً، وجعل الله منها ذريته التي تكمل حياته الحاضرة والمستقبلة. ولكن ذوبان مقومات الرجولة أحالت زوجته في نظره إلى متطفلة على حياته، يبعدها، بل يطردها من حياته، ومن بيتها متى شاء له مزاجه المتقلب ونفسه الملول ذلك.

أقول ذلك في صورة من صور واقعنا المعيش، صورة واحدة نقيس عليها آلاف القصص المشاهدة.

فهذا زوج يطرد زوجته من بيتها، لأن أمه ترغب في ذلك حتى إن الزوجة قد اعتادت أن تطرد من بيتها، كلما عنّ ذلك لزوجها، متناسياً ذلك الزوج أو متجاهلاً أن لزوجه عليه حقوقاً كما لأمه أو لأخته أو أقاربه. أقول، وأخيراً نفد صبر الزوجة وقررت هي نفسها الانفصال عن زوجها لتبتعد عن مرارة الحياة التي ذاقت منها الألم والعذاب لسنوات طويلة، مع زوج متقلب،لا يقر له قرار، ولا يهدأ له بال.

وتعود الزوجة إلى بيتها الأول الوهميّ ومعها أولادها، ومع ذلك كله ولشهور طويلة، ينسى الزوج أو يتناسى أن لأولاده حقوقاً عليه، ويمضي الرجل في غفوته أو غفلته، ولا يستيقظ إلا على قضية طلاق ترفعها زوجته من خلال المحكمة، ويجن جنون الزوج الغافل الناسي، لا على قضية الطلاق، ولكن لأن المسألة قد توجهت وجهة أخرى هدفها محاولة التأثير على زوجته حتى تسقط الدعوى.

ولن أمضي في سرد الأحداث، فهذه الواقعة تهم أصحابها في الدرجة الأولى، ولكنها تهمنا بمقدار ما توزن به في ميزان الرجولة والقوامة. فأين الرجولة فيما يصنع هذا الرجل؟ وماذا تعني القوامة في مقياسه وميزانه؟ وماذا يريد هذا الرجل وأمثاله؟ يطرد زوجته فيصبح بلا هوية ولا استقرار، ويعيد إليه زوجته، لا ندماً واستغفارا، ولكن ليعود إلى طردها من جديد، وفقاً لمزاجه المتقلب.

فماذا يريد مثل ذلك الرجل؟ يصنع ولا يدري ما يصنع! يفعل ولا يدري ما يفعل، يقول ولا يدري ما يقول، فأي حياة يحياها، وتحياها معه زوجته؟ أي حيرة يحارها، وتحارها معه زوجته؟ هو دولاب يدور ويدور، وعلى زوجه أن تدور معه وهي تلهث وتلهث. فلحظة نراه غاضباً، وثانية راضياً، وثالثة ساخطاً، ورابعة مازحاً، وخامسة ضاحكا، وسادسة جادا، وسابعة لاهياً، وثامنة صامتاً، وتاسعة باشّاً إلى أبعد الحدود مع كل الناس إلا مع زوجته، وعاشرة أسداً على زوجته فحسب... وهكذا، دون حساب لتلك الزوجة، لتعبها، لسهرها، لشقائها في عملها داخل البيت وخارجه، لأعصابها، لمشاعرها، فهو يعتقد أن الزوجة آلة صماء لا تعي ولا تحس، وينسى تماما القوامة التي لا تكون إلا مع الرجولة، وهذه تعني في مفهوم الشرع والمنطق والخلق والعرف والإنسانية أن يتواضع، ويتواضع لله الذي كرمه التكريم كله، وأعطاه حق القوامة، عن طريق إكرام زوجته وإنصافها. وقوامة الرجل تعني أيضا أن يكون العقل الكبير الكبير، والخلق العظيم العظيم، والقلب الرحيم الرحيم، وما سوى ذلك فهو إهدار لحق القوامة، وإنقاص من قيمة رجولته، ولا رجولة تكون ناقصة، فإما رجل ورجولة، أو لا رجل ولا رجولة.

بين قلبين

عن أنس رضي الله عنه: أتى رجل رسول الله (ص) فقال: إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه. قال: هل بقي من والديك أحد؟ قال : أمي . قال: قابل الله في برها. فإذا فعلت فأنت حاج ومعتمر ومجاهد.

والحديث الشريف ليس تهيئة لموضوع أتحدث فيه عن الأم، فقد تحدثت في هذا، ولكن الحديث عنها في صورة أخرى يعرفها الجميع، صورة متجددة تجدد الكون، إنها صورة أم الزوج العظيمة، وهذا يستتبع بالتالي صورة زوج الابن.

ولن يكون الحديث عن العلاقة التي تربط بين الاثنين، فهذا أمر لا يجهله أحد. ولكنه حديث إلى الرجل نفسه، في موقفه، وعدله وضميره بين من أوصى الرحمن بهما، وقبل هذا أهيِّئ النفوس فأقول: الأم اطهر الخلق، وأمومتها أقدس العواطف وأنبلها، فهي العطاء بلا ثمن، والتضحية بلا حدود، والتفاني في غير كلل أو ملل.

هذا أمر سماوي لا نماري فيه، ومهما قدم الابن لأمه أو لوالديه فإنه لا يوفيهما الحق، بل إنه مهما كان الابن براً وفياً فإنه لا يطيق ما كان يطيق الأب أو الأم من عذاب وآلام حين تنتابه الأوجاع والأسقام.

جاء رجل إلى النبي (ص) وقال له: يا رسول الله إنني حججت بأمي من اليمن على ظهري، وطفت بها البيت، وسعيت بها ورميت لها الجمار بمنى، فعلت ذلك كله وهي عجوز لا حراك لها، وأنا احملها على ظهري. فهل أديت حقها عليَّ؟ فقال (ص): لا. قال الرجل: لم؟ قال: لأنها فعلت ما فعلت بك في صغرك وهي تتمنى حياتك، وأنت فعلت ما فعلت بها وأنت تتمنى موتها.

وتهرم الأم بعد أن تكون قد غذت ابنها وسقته قوتها وشبابها حتى يغدو رجلا يستقبل الحياة بتلك القوة وتلك الجرأة التي تحيا الأم وتموت حتى تغرسها في نفسه.

ويستقل الابن عن أمه رجلاً قوياً مهيأً لخوض الحياة، وهنا لا بد من شريك يخفف عنه قسوة الحياة التي يكافح فيها. وهذا الشريك لا بد من أن ترضى عنه الأم التي تباركها زوجة لابنها، إكراماً لعيون هذا الابن.

وهنا تختلف الرسالة في ظاهرها، وإن كانت في أصلها استمراراً لرسالة الأم. فالأم زوجة قبل أن تكون أماً. والزوجة، تصبح أماً فيما بعد.

فأمومة الزوجة جزء من أمومة أم زوجها، فهذه أم وتلك أم، وبينهما الابن الزوج. فماذا عليه أن يصنع؟ إنه امتحان لرجولته التي صنعها كفاح أمه وصبرها وتفانيها، والتي أوقفت لها قوتها وشبابها وما لها وما عليها. وكل هذا لا بد من أن يقابله

الابن بالبر والوفاء، وقد أوصى سبحانه بها إيصاء قرنه بعبادته فقال "وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا" كما قرنه سبحانه بشكره فقال "أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير". بل إن الابن لا يوفي والديه الحق والفضل مهما قدم وأخر فقال (ص) "لن يجزي ولد والده حتى يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه" وهذا أمر غير حاصل بداهة.

إذن يبقى في ذمة الأبناء الدين الكبير الهائل إلى يوم يلقون ربهم. بين هذا كله يقف الابن الزوج، ومنه ينتقل إلى الحياة الثانية، حياة الاستقلال والاعتماد على النفس، وتحمل المسؤولية، ومواجهة الواقع حيث الكفاح والصراع والمكابدة في سبيل العيش الكريم الآمن.

وحتى يتمكن الرجل من هذا كله لا بد له من شريك نفسي وسكن روحي، يسكن إليه ويأنس به. قال تعالى "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة" (الروم:٢١).

فكانت الزوجة هي من يأنس بها ويسكن إليها سكناً فيه قوله تعالى "نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم" (البقرة :٣٢٣).

وقد تشدد الإسلام في اختيار هذه الزوجة حتى يتحقق فيها السكن فقال رسول الله (ص): "الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة". وحث كذلك على الزواج بذات الدين لما في ذلك من تحقيق الأمان والاطمئنان في حال غياب الزوج قبل حضوره فقال (ص): "لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن، ولا تزوجوهن لأموالهن، فعسى أموالهن أن تطغيهن. ولكن تزوجوهن على الدين. ولأمة سوداء ذات دين أفضل".

وقال عليه السلام "إياكم وخضراء الدمن" أي المرأة الحسناء في المنبت السوء.

فإذا ما أحسن الزوج اختيار زوجه كان ذلك إيماء، إلى أنه سيحافظ عليها ويحميها ويكرمها ويحلها المكان اللائق بها، ويدافع عنها إزاء أي شر. فان الرجل الحقّ إذا احب زوجه أكرمها، وإذا كرهها لم يظلمها.

من هذا المبدأ كان على الزوج ألا يحتار بين هذين القلبين قلب أمه من جانب، وقلب زوجه من جَانب آخر. فلكلتيهما حقها، لا يتجاوزه الابن الزوج بحال، ولا يجور قصداً وعمدا، منطلقاً من مبدأ الحسنى والتقوى والضمير، وما يقدمه الابن يرجعه أبناؤه إليه في مستقبل الحياة.

وحين يقف الابن الزوج هذه الوقفة، فإنه ينطلق من رجولة تعدل بين قلبين يشاركانه مشوار الحياة، مشاركة محبة وإرضاء له وعمل على راحته، وليست مشاركة منافسة ممقوتة. تلك سنة الله، ودستور الحياة "فلن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا".

فعواطف الابن الزوج تتوزع بالعدل وفقاً لشريعة الله سبحانه. فلكل مكانتها، ولكل تقديرها، والاثنتان تعملان على إسعاده واستقراره.

والأمر كل الأمر متعلق بالرجل نفسه ورجولته إزاءهما، حتى لا يزل في المعاملة بما يغضب الله والضمير فكثيراً ما نسمع العجيب والغريب في تطرف بعض الرجال إزاء الأم العظيمة الصابرة أو الزوجة المكافحة، فان عقوق الابن قد يصل أحيانا إلى إيذاء الأم إيذاء يقهر القلب ويطعن الروح، إيذاء يشفعه بالضرب – استغفر الله –، وكم يعذب صوت تلك الأم التي تقول في ابنها العاق.

أنشا يمزق أثوابي يؤدبني   أبعد شيبي يبغي عندي الأدبا

لن اعلق، فان المرارة تحول دون ذلك، ولكن انتقل إلى تطرف آخر، نجد فيه الابن الزوج ظالماً لزوجه. ومن صور هذا الظلم صورة فلان مثلا، وهو يعمل على إغضاب زوجه كلما زارته أمه العظيمة من بلدها الآخر وترحيلها إلى بيت أهلها،

وكذلك صورة هذا الذي يصر على أن تنام أمه معه في فراشه ويأمر زوجه أن تنام مع أولادها، وقد يستمر الحال شهوراً وشهورا، وموقف الزوج لا يتغير، وصورة ذلك الزوج وهو يأبي أن يغلق باب غرفة نومه مع زوجه حرصاً على مشاعر الأم العظيمة، خشية أن تظن أن ابنها بعيد عنها ولو بالنوم.

وغير هذا كثير مما لا يقبله العقل والمنطق والأم نفسها، فإنه ليس مما يغضب الأم بحال أن يكون ابنها سعيداً مع زوجه، وليس مما يسعدها ويرضي ربها أن يظلم ابنها زوجه، وقد أوصى الشرع بإكرامها.

وليست هذه الزوجة إلا الأمينة على ظهره وبيته وأولاده، والعاملة بتفان على راحته وهنائه واستقراره وإسعاده. وقد مضى الرسول (ص) يؤكد شريعة الله تعالى في إكرام المرأة وعدم إهانتها وظلمها، وكانت آخر وصاياه في حجة الوداع "أوصيكم بالنساء خيرا". وهو (ص) خير قدوة في معاملة أهله ونسائه فقال "وخيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي".

وصدق رسول الله

العامل في الإسلام

عيد آخر من الأعياد العصرية المفتعلة هو عيد العمال في الأول من أيار كل عام.

وفي هذا اليوم يستيقظ العالم فجأة، وكأنه يفاجأ بأن للعمال عيدا. ونحن للأسف نهب معه متناسين أن الدين الحنيف قد سبق العالم كله في الاحتفال بالعامل والعمل.

ولا يزال يتردد في أذهاننا أول حق من حقوق العامل في حديث رسول الله (ص) أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه".

وحرص الإسلام على هذه الحقوق ، فرفع شأن العامل، وأعلى قدره، وحرم استغلاله وهضم حقوقه، واغتصاب عرقه ودمه من قبل صاحب العمل الذي هو واحد منهم، وليس إلهاً معبودا، بما أعطاه الله من سلطة المال وسطوة الجاه.

فكثيراً ما نسمع أن فلاناً مثلاً قد استخدم عمالاً لقاء أجر معين، ولكن ما أن يحين موعد تسلمهم أجرهم، حتى يفاجؤوا بإنقاص هذا الأجر عما اتفقوا عليه.

من هنا كان الإسلام أرحم بالعامل من نفسه فقال رسول الله (ص) في حديثه القدسي "ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمه خصمته: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه، ولم يعطه أجره".

وأولو العزم من الرسل خير قدوة لنا في تأكيد قيمة العمل الشريف – ، الذي يدعم كيان صاحبه، ويعطيه الثقة بقدراته البناءة وطاقاته المعطاءة مهما كان عمله.

فمهنة نوح عليه السلام هي النجارة وصناعة السفن "واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه" (هود:٢٧).

ومهنة داود عليه السلام الحدادة، التي تدر على صاحبها اليوم ذهباً "ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير".

واشتغل موسى عليه السلام برعي الغنم عشر سنوات أجيراً في ارض مدين قبل أن يبعثه الله رسولا.

وكان سيدنا محمد (ص) يرعى الغنم في صدر شبابه، ثم اشتغل بالتجارة في مال خديجة بنت خويلد زوجه رضي الله عنها.

فالإسلام يحث على العمل، ويبيح للعامل أن يجني ثمار عمله، وكفاء جهده قال سبحانه وتعالى "فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله". (الجمعة ١٠).

بل إنه يرغب في العمل إلى أبعد الحدود فيقول تعالى "فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه".

إلى جانب هذا فان العمل يجب أن يكون عاملاً من عوامل إسعاد صاحبه، فإن لنفسه عليه حقا "وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا". (القصص: ٧٧).

وبلغ من تكريم الإسلام للعامل أن فضله على المتعبد؛ فقد ذكر رجل عند النبي (ص) بالاجتهاد في العبادة والقوة على العمل، وقالوا صحبناه في سفر فما رأينا بعدك يا رسول الله أعبد . كان لا ينفتل من صلاة، ولا يفطر من صيام. قال النبي (ص): فمن كان عونه ويقوم به ؟ قالوا: كلنا. قال : كلكم أعبد منه.

كما أن العامل كالمرابط المجاهد في سبيل الله سواء بسواء فقال تعالى "وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله".

وقال رسول الله (العائد على أهله وولده كالمجاهد المرابط في سبيل الله). وقال "اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بنفسك ثم بمن تعول".

وأنشد أبو عبيد القاسم بن سلام:

لا ينقص الكامل من كماله ... ما ساق من خير إلى عياله

فالعامل في سعيه على رزق ولده أحرى بأن يحافظ على هذا الرزق الذي يصون به ماء وجهه قبل أن يصون أنفاس الحياة، وهو أعلم من سواه بمصلحته ومصلحة

عياله. قال محمد بن إدريس الشافعي "احرص على ما ينفعك ودع كلام الناس فإنه لا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة".

وقال مالك بن دينار في هذا "من عرف نفسه لم يغيره ما قال الناس فيه".

وقد وعد الله العاملين الذين يجهدون لكسب عيشهم بالجزاء الأوفى يوم القيامة، فضلاً عما يكسبونه في حياتهم الدنيا من نعمة وستر قال تعالى "وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون".

وشرط هذا الأجر الرباني النية الصالحة التي تكسب العامل النشيط ثناء رب العمل في الحياة الدنيا، وجزاء الله تعالى في الآخرة.

روى كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: مر على النبي (ص) رجل فرأى أصحاب رسول الله من جلده ونشاطه فقالوا: يا رسول الله: لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال رسول الله (ص) "إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومظاهره فهو في سبيل الشيطان".

وعفة النفس وكفها عن مسألة الناس لا تتأتى إلا بالعمل الشريف مهما كان ضئيلا.

عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص) :لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه".

والعامل المؤمن النشيط يعمل على مضاعفة جهده في الإنتاج ليتحقق المطلوب في وقت أقل مما هو مقرر له، وذلك يعمل على دفع المجتمع في دروب العفة والعزة والاكتفاء الذاتي، اقتداء برسول الله (ص) وهو يشجع عمار بن ياسر رضي الله عنه

حين كان يحمل حجرين حجرين في بناء مسجد المدينة، بينما سائر الناس يحملون حجراً حجرا.

وليس ذلك إلا لإدراك الرسول (ص) قيمة العمل في بناء المجتمع الإسلاميّ، حيث يكسب العامل الكسب الحلال من عمل يده.

عن سعيد بن عمير عن عمر رضي الله عنه قال: سئل رسول الله (ص): أي الكسب أطيب؟ قال: عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور".

وعن عبدالله بن محصن رضي الله عنه أن رسول الله (ص): "من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها". وتلك هي سعادة الحياة الآمنة، حيث سلام النفس، وطمأنينة الجوارح، وهذه لا تتأتى إلا بعد معاناة العيش ومكابدته.

عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله (ص): "من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفوراً له". صدق رسول الله

الرياء

قال تعالى"إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا".

فالرياء مرض من أمراض القلب وهو توءم النفاق، وهو أن يظهر الإنسان ما يخالف نوايا قلبه، وحقيقة ما تكنه نفسه. وهو من أعظم الكبائر، وأخبث السرائر، وهو مبطل للأعمال مفسد لها.

والمرائي ممقوت، بغيض، مبعد عن كل خير. وقد حارب الإسلام الرياء والمرائين في كثير من آيات الكتاب العزيز، وأحاديث رسول الله (ص). وقد جعله الإسلام

بمنزلة الشرك الأصغر قال (ص): "إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال :الرياء".

وصور الرياء كثيرة لا تحصى في حياتنا، ويتوهم صاحبها أنها تخفى على الله، وإن كانت خافية على الناس. فالرياء – كما ورد – أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة المظلمة على الصخرة السوداء. ولكن الله لا تخفى عليه خافية في السماء ولا في الأرض، والله سبحانه يكشف رياءهم، و"يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون أولئك الذي اشتروا الضلالة بالهدى، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين".

ومن صور الرياء كما ورد عن علي كرم الله وجهه قوله: "للمرائي أربع علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان بين الناس، ويزيد في العمل إذا أثني عليه، وينقص منه إذا ذم به".

وأشد أحوال الرياء جرأة على الله، وأعظمها جرماً الذي يتستر بالإسلام، بالتبتل والخشوع لأركانه وآدابه، ويظهر التأدب بآدابه، وقلبه مشحون بزيف الدنيا وزخرفها، ويكون أبعد ما يكون عن جوهر الإسلام في أعماقه وسريرته.

قال تعالى: "وإذا لقوكم قالوا آمنا، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ. قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور:. (آل عمران:١١٨).

وطائفة أخرى ترائي بعمل الطاعة في العلن، وتتخلى عنه في السر. وهذه الفئة تبغي طاعة الناس بعيداً عن طاعة الله ورضاه. قال (ص) حين سأله رجل فقال : يا رسول الله فيم النجاة؟ فقال أن لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس".

وطائفة أخرى تأتي ما تأتي من بذل المال وإنفاقه في كل وجه إلا الوجه الذي يراد به حب الله، وليس ذلك إلا ليوصف صاحبه بالجود والسخاء. فنرى المال مثلا ينفق

بسخاء على الولائم المفتعلة التي تستنفد الطاقة المادية والنفسية، ويجري الإنسان بعدها لاهثاً وراء جهده وعرقه.

صورة أخرى من صور الرياء المرائي في صلاته، لا يريد بهذه الصلاة وجه الله سبحانه، لأنه يتخفف من صلاته إذا ما خلي ونفسه، ولكن إذا ما علم أن الناس تراه جد واجتهد وحسّن صلاته التي يتخذها شباكاً يصيد به ثناء الناس وحسن رأيهم في صلاحه وورعه، حتى يتمكن من النفاذ إلى ما يريد من زينة الحياة الدنيا "فويل للمصلين الذي هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون". والعمل الذي لا يراد به وجه الله تعالى فإن عاقبته الخسران.

ومن صور الرياء كذلك المراءاة بالعلم ونشره عن طريق التشدق بالكلمات والتفاصح في العبارات، وتزويق الألفاظ التي يرائي من خلالها، وهو في ذلك لا يقصد نشر العلم حباً في الله، ولكن ليوهم الناس أن ما عنده من العلم كثير غزير، يتحدى به غيره، وهو يجهل كل الجهل أنه يكشف عن خواء تام يغطيه ويستره بتشدقه وتفاصحه.

ومن صور الرياء كذلك المراءاة بالمخالطين والزائرين. يتكلف أحدهم ان يستزير عالماً من العلماء، أو يتمسح بشخصية من الشخصيات المعروفة حتى يقوم له بذلك جاه عند العامة، وحتى يقال عنه إنه ذو شأن كبير وخطر عظيم، فيستطيع – من خلال ذلك النفاذ – إلى ما يريد من زينة الحياة الدنيا.

صور أخرى كثيرة من الرياء يضيع الإنسان فيها، ويلتبس عليه من خلالها الصدق في العمل، فلا يعود يدري إن كان ذلك العمل إخلاصاً لله وحباً في الله وتقرباً من الله أو أنه تدليس ومراءاة؛ فالرياء كما تقدم أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة المظلمة على الصخرة السوداء. ويتوهم المرائي أنه يخدع الله والناس، ولكنه لا يخدع إلا نفسه، فتزداد حقارة نفسه، وتتضاعف المذلة في أعماقه "ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين، يخادعون الله والذي آمنوا وما

يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون". (البقرة).

من خلال ما تقدم قد يتساءل سائل فيقول: هل حبط كل ما فعلناه من خير؟ وهل ذلك الذي اعتقدناه خيراً هو الخسران المبين؟ فما الخير إذن؟ وكيف يكون الإخلاص فيه؟ وهل يقيد الإنسان في فعل الخير بكل تلك القيود؟ أقول من يفعل الخير صامتاً حباً في الله فإن القيود تتلاشى من ذهنه، أما إذا كان الخير مراءاة وتضليلاً فإنه يحس في نفسه القيود التي تكبله وتجعله في قلق دائم وحيرة قاتلة، حتى إذا افترضنا جدلاً بوجود القيود فإنها بمقدار تكريم الله سبحانه وتعالى للإنسان، وبمستوى تفضيل الله تعالى له على الملائكة، فجعله خليفته على الأرض، عند كل ذلك يطلب من الإنسان الشكر والحمد والتفاني والإخلاص في العبادة، في عمل الخير، في نشر العلم حباً في خالقه، ويطلب منه المجاهدة الدائمة للنفس الأمارة بالسوء حتى يكون بحق عند مستوى التكريم الذي كرمه به خالقه سبحانه " ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا".

صدق الله العظيم

خلق الإنسان من عجل

كثيرا ما نقرأ في القرآن الكريم قصة سيدنا أيوب عليه السلام، ومدى ابتلائه وصبره على هذا الابتلاء.

وقد اتخذ صبره صورة واحدة من اختلاف بلاياه ومصائبه وتنوعها. وقد بلغت هذه من الألم والقسوة حداً يجعلنا نتساءل: ما تلك القدرة الخارقة والطاقة الهائلة التي أوتيها أيوب؟.

ومع هذا فإنه عليه السلام بشر من البشر، وإن يكن في صبره قدوة، ولكن قل من يقتدي بها، مع كون بلية المبتلين دون ما ابتلي به أيوب عليه السلام "وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين".

ومع هذا فان أيوب ليس غرضي هنا ولكن صبر أيوب أو بعض هذا الصبر لإنسان هذي الحياة.

وأحدد هذا الصبر المرجو في جانب حياتيّ واحد من واقعنا الملموس، وأوجزه في آية كريمة انطلق من خلالها إلى موضوعي: "لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء، يهب لمن يشاء إناثا، ويهب لمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكراناً وإناثا، ويجعل من يشاء عقيما، إنه عليم قدير" (الشورى ٤٩).

فالآية الكريمة واضحة في أن الله سبحانه يهب لمن يشاء إناثاً فقط، ويهب لمن يشاء الذكور، أو يهب إناثاً وذكورا، ويجعل من يشاء عقيما.

هكذا.. ولحكمة سماوية تدق على أفهامنا وإدراكنا، يهب الله البشر هذه الهبات المصنفة، أما حين يجعل من يشاء عقيماً فهذا هو السر الأكبر، وهي الحكمة التي فيها من رحمة الله ورأفته ما نعجز من الوصول إلى كنهه.

ولكن فيه من الكتاب العزيز بعض إشارات، وهي تذكرني بقضية سيدنا موسى عليه السلام والخضر حين انطلقا في البحر "فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكرا".

وحين سال موسى الخضر عليهما السلام عن سر قتله الغلام كان الرد "وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفرا".

ولكن الناس في هذا مختلفون جهلاً وضلالا، وهم يمتثلون أساليب متنوعة من العيش نطلق عليها أحياناً اسم الخبر أو الحكاية، لنسمها ما شئنا. أهم ما فيها أنها تحكي حياة الناس.

فإحدى الحكايات الواقعية تقول خلفة فلان مثلاً من الذكور، وخلفة آخر من الإناث. وهذا الأخير يتحرق شوقاً إلى ذكر يحمل اسمه. ولكن ما الوسيلة إن كان الله شاء له ما شاء؟.

عندها تراوده فكرة، بل إن الناس هم من يزرعونها في عقله، وهي الزواج الجديد حتى يتحقق له ما يريد.

ويتم الزواج الجديد فإذا بزوجته الأولى تحمل بعد يأس وانقطاع لأنها مشيئة الله وإرادته ولا راد لحكمه.

وهنا أقف ليتدخل الصبر، وهو يتنافى مع العجلة التي تؤكدها الآيات الكريمات "وكان الإنسان عجولا" و "خلق الإنسان من عجل".

وآيات الصبر كثيرة تنوف على السبعين موضعا في القرآن الكريم. وقد أضاف الله سبحانه وتعالى إليه اكثر الدرجات والخيرات، وجعلها ثمرة له فقال "ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون" وقال جل وعلا "إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب".

وقال صلى الله عليه وسلم "الصبر نصف الإيمان و "الصبر كنز من كنوز الجنة". وسئل صلى الله عليه وسلم: ما الإيمان؟ فقال : "الصبر".

فأين الصبر من ذاك الذي انعم الله عليه بالأنثى، فرآها دون نعم الله التي يراها من حوله، فأخذ يتحسر على ما فاته، وإذا بالحسرة تستحيل إلى أنثى ثانية وثالثة وهكذا.. من الله سبحانه.

كل ذلك وهو لا يرعوي فلعله يدرك سر الله وحكمته مع كل طفلة تولد له، وعساه أن يرضى بما قسم الله له، ورب صبر يقوي قلبه وينيره.

فقد تتزوج الأنثى رجلا تقيا مؤمنا يكون لأهلها الابن البار، بل إن هذه الأنثى التي تتربى في ظلال التقوى نفساً وروحاً وعقلاً لهي أحب إلى الله من الذكر السادر في ظلمات الضلالة والغي.

عن ابن عباس رضي الله عنه، لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار قال: أمؤمنون انتم؟ فسكتوا فقال عمر: نعم يا رسول الله. قال: وما علامة إيمانكم؟

قالوا: نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء، ونرضى بالقضاء. فقال صلى الله عليه وسلم: مؤمنون ورب الكعبة.

ومع هذا نعود فنسمع العجب عن جهل بعض الرجال إذ يمضي هذا في غلوائه وضلاله فيحلف بالطلاق من زوجه أن هي أنجبت الأنثى، وكأنّ المرأة تصنع الطفل بيدها – استغفر الله – ولا دخل فيه للرجل، وينسى أو يتناسى جهلاً وعماية أنّ ما يزرعه هو تحصده زوجه.

ويشاء الله سبحانه بواسع رحمته أن يحلل الرجل من حلفه صيانة للمراة وإكراماً لها، فيهبه توأمين أنثيين. هكذا. وعندها فقط أتخيله يردد لا اله إلا الله. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أما حين أصل إلى قوله سبحانه "ويجعل من يشاء عقيما" فإنني أتريث خوفاً وفرقا. إذ إن حكمته سبحانه في هذا تفوق كل تصور، وتغلب كل إدراك.

وقد أفتى الشرع في كون هذا الأمر سبباً من أسباب زواج الرجل من جديد، ولكنه سبب اختياريّ لا إجبار فيه. فقد يرضى الرجل بقسمته وقضاء الله فيه، فيصبر على هذا ويحمد الله عليه، ولا يحمد على مكروه سواه.

ولكن ذلك لا يكون دفعاً للرجل على صب ظلمه وتعنته على زوجه، حتى تكره من خلاله الحياة، فتستحيل في نظرها سوداء قاتمة فقال سبحانه "ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا". عندها "فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان".

حتى إذا وصلت العلاقة بين الزوجين إلى اشد حالات الكراهية، فإن الله سبحانه لا يقبل لها أن تنفصم "وعاشروهنّ بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً، ويجعل الله فيه خيراً كثيرا".

ومن هذا المنطلق قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرجل هم بطلاق امرأته لأنه لا يحبها "أوكل البيوت بني على الحب؟ فأين الرعاية والتذمم؟".

وهذه الرعاية توجبها العلاقة الرحيمة التي تقوم في الأسرة. فهي قبل كل شيء رحمة ومودة ورأفة وألفة، وليست شركة تقوم على المصلحة المادية الدنيوية، فإن هذا يسرع في تفككها، ويعمل على زرع بذور الكراهية والشر والفساد بين الزوجين.

والإسلام دين الرحمة والتعاطف والتكافل، حين أوصى الرجل بالمرأة، وتشدد في ذلك كثيراً حين جعل التقوى في الرجل ميزان رجولته، فإنه إذا أحب زوجه أكرمها وإذا كرهها لم يظلمها.

وهكذا أقول الصبر، ولا شيء غيره.. وبشر الصابرين"، "ولئن صبرتم لهو خير للصابرين".

في ذكرى مولد رحمة العالمين

قال تعالى: "لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين".(آل عمران:١٦٤).

إنه الضلال المبين الشامل الكامل، وقد مادت الأرض واضطربت بأوزار أهلها وخطاياهم، وتخبطت البشرية كلها في ضلالة عمياء لم يعد فيها منفذ لضوء، والأكوان كلها بحر لجيّ من ظلمات بعضها فوق بعض. وقد أباحت لهم جهالتهم الجهلاء ما لا يمكن لعقل إدراكه وتصوره، فقد انغمسوا في غرائزهم وشهواتهم وحيوانيتهم حتى سفوا عن الحيوان نفسه، وعمت الفوضى جميع علاقاتهم، حتى باتت الخطيئة أصلاً، والفضيلة هي الفرع المستكين في أعماق بعيدة الغور. وسيطر على الحياة رذائل تفنن فيها أهلوها، فاستبيحت – ما تسمى في عرف العقل والمنطق – المحرمات بألوانها المتعددة.

ومن هذا المنطلق انطلقوا يتخبطون في زوايا حياتهم، فقويهم يأكل ضعيفهم وغنيهم يدوس فقيرهم، والثأر يفتك بهم. ولم تبق عليهم حياتهم هذه أي وازع من ضمير أو رادع لجبروتهم وتسلطهم، فالرحمة منتفية في قلوبهم، والشفقة ميتة في مشاعرهم، والرقابة معدومة في ضمائرهم. فأي ضمائر ولا قانون ينظمها؟ وأي قلوب وقد ران عليها أقفالها؟ وأي مشاعر ولا مشاعر غير الظلم والبغي؟ فأي ظلم وأي قسوة يصلون معها إلى وأد بناتهم. فهل يرجى بعد ذلك أي خير في مجتمع كهذا، في أمة كهذه. وأمة القبائل هذه واحدة من أهم جوانب العالم آنذاك. وقد اجتمعت كلها على الظلم والقتل وهتك الأعراض، كل بطريقة تفكيره وظروفه أهدروا حقوق الإنسان على الأرض، وأدناها حق العيش، حتى باتت حياة الإنسان أتفه الأمور في مقياس القوة، وفي ميزان الظلم. وأي حياة آمنة يرجوها الإنسان وهو يرى أخاه من بني الإنسان يقدم طعاماً للحيوان الجائع؟ وأي أمل يرجوه الإنسان في حياة لا مكانة

له فيها؟ فقد استحال المجتمع آنذاك إلى آلات خرساء لا تعي ولا تدرك ولا تفكر ولا تحس، إذ لا حب ولا رحمة ولا شفقة ولا عطف. فأين الخلاص؟ وكيف النجاة؟ وفيم الأمل؟ وقد سدت على الناس جميع منافذ الحياة، وأوصدت في وجوههم سبل الأمان؟ ليس إلا الخوف والفزع والهلع والقلق، وبلغت قسوة الحياة بهم أقصاها، وباتت النفوس في ذروة قلقها تتطلع إلى الخلاص، وأمست القلوب في قمة توجسها ترتجي الأمل. فالإنسان بكله يترقب ويتطلع ويتهيأ، والبشرية بأسرها باتت تحس أن النور يعقب الظلام، والأزمة تنفرج بعد اشتداد، واقتربت قلوب كثيرة من النور الذي تتهيأ الأكوان لاستقباله بعد حلكه فبشرت قبل مولده البشائر وأيدت صدقه المعجزات والبراهين، وبشرت به توراة موسى وإنجيل عيسى، وتجسد ذلك فيما جاء في الكتاب العزيز "وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد". وقال رسول الله (ص): أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى أخي عيسى".

وكان النور، وكان الأمل، وكانت الرحمة، وكان ميزان العدل في مولد رسول العالمين، النبي العربيّ الأميّ، وكان تاريخاً سجدت له الأكوان، يوم الاثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأول. وكانت المعجزات في هذا المولد العظيم، ففيه خبت نيران المجوس، وسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى، وتردد صدى المولد العظيم في جنبات الأكوان وتلقفت القلوب والضمائر ذلك النبأ، ودار التاريخ دورة هائلة اختفى معها وجهه الكالح وحل محله وجه أزهر نورانيّ.

ويطلع نجم أحمد، ويقف يهودي على أطمة يثرب وهو يصرخ بأعلى صوته: "يا معشر يهود! حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له: ويلك مالك؟ قال: طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به".

وقد شاءت العناية الإلهية أن ترفع عن كاهل الإنسان ذلك الظلم الشامل، وكانت الهواتف الطائفة تعلن في رؤوس الجبال، وسفوح الأودية ومدارج السبل وأواوين

القصور بشرى الرسالة، وظهور النبي المنتظر، وتكشف ستار القدرة عن عالم الأرواح فجمع الله سبحانه وتعالى أرواح الأنبياء والمرسلين، وأخذ عليهم جميعاً العهود والمواثيق أن يؤمنوا برسالته، وان يصدقوا دعوته، ثم أشهدهم على هذا العهد الوثيق وكان معهم من الشاهدين "وإذ اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري. قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين".(آل عمران ٨١).

وجاء المصطفى رحمة للعالمين، وهدأت النفوس بعد قلق، واطمأنت القلوب بعد خوف، وقرت العيون بمعجزاته (ص)، فكان الأمان والاطمئنان، والرحمة والشفقة، وكان القلب الذي وسع البشرية بكل أدوائها وعلاتها، والصدر الذي استراحت إليه الإنسانية بعد طول تخبط وضياع وحيرة. واستقام ميزان الحياة "وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا".

وكانت الرسالة المحمدية الشاملة سعادة الدارين وبهذه الرسالة تستكمل رسالات السماء المواكبة تدرج البشرية في مدارج الطفولة والصبا، ويكتمل البناء الذي شادته السماء على الأرض بأيدي أنبيائه ورسله صلوات الله عليهم فيقول (ص): مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل شيد بيتاً إلا موضع لبنة فيه. فكانوا يقولون ما أجمله لولا هذه اللبنة. فأنا هذه اللبنة وأنا خاتم النبيين".

واليوم نحتفل بمولدك يا رسول الله، يا حبيب الله، ومولدك يعني تأكيد مبادئ العدالة على الأرض، وهو يعني تجديد القيم الإنسانية التي تاهت وحارت على الأرض قبل مولدك فكنت لها الأمان والبر والسلام.

بك بشر الله السمـــــاء فزينـــت وتضوعت مسكاً بك الغبـــراء

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل في حق الحيـــاة ســـواء

أنت الذي نظم البرية دينــــــــه ماذا يقول وينظـــــم الشعـــراء

المصلحون أصابع جمعـــت يـــداً هي أنت بل أنت اليد البيضــــاء

المدارة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مداراة الناس صدقة".

وأكاد أقطع بأن المداراة من أدق فنون القول والاجتماع لأنه فن تعجز عنه بعض النفوس التي تغلب عليها الجرأة في قول الحق غلبة لا يستقيم معها الأناة والصبر وطول النفس في المداراة والمجاملة.

والمداراة حسن اللقاء وليس الكلام مع عدو تجتمع به، فنبالغ في التلطف معه والإكرام دون أن تشعره بسخط أو غضب أو استنكار، إلا في بعض الأحوال التي تشعر فيها إن كاشفته بما في قلبه خير لك وله من إضماره ومداراته. وذلك حين يستشري الشر، ويستفحل الخطر، ويأخذ في إثارة البلبلة واختلاق الأقاويل بغير وجه حق.

أما حين يكف المرء شره عن غيره مع ما يضمر من عداوة، فذلك أحرى بأن يداري ويجامل ويتلطف معه التلطف كله.

عن أبي الدرداء قال "إنا لنبش في وجوه قوم وإن قلوبنا لتلعنهم".

وهناك من يخلط بين المداراة والمداهنة، حتى ليكاد يجعل منهما شيئاً واحدا.

فالمداهنة هي أن يتلون المرء بين شخصين متعاديين يُشعِر كلاً منهما أنه صاحبه، في الوقت الذي ينم عنهما كليهما.

أما المداراة فهي مجاملة العدو مع حجز اللسان عنه، وعدم التشهير به في ظهره، وذلك يكون اتقاءً لشره وإبعاداً لأذاه.

قالت عائشة رضي الله عنها: استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "ائذنوا له فبئس رجل العشرة هو" ثم لما دخل ألان القول. فقال: "يا عائشة إن شر الناس الذي يكرم اتقاء شره".

والرسول صلى الله عليه وسلم في هذا معلم ناصح، يعلم أدباً من آداب الاجتماع، وهو الرفق المتناهي، بإنسان عرف شره.

ولكن هذا لا يمنع من إشعار ذلك الشخص بطريق ذكي بما يضمر في نفسه، وذلك بمعالجته بالموعظة الحسنة، ما لم يكن هذا الإنسان شيطاناً ماردا، سخر لسانه في قيل وقال دون شبع أو روية.

قال شبيب بن شيبة بن خالد بن صفوان: ليس له صديق في السر ولا عدو في العلانية، أي أن الناس يدارونه لشره فحسب.

وقد تبلغ النفوس الذكية بمداراتها حداً تستل معه سخيمة العدو، وتطفئها. بل إنها تقلبها أحيانا صداقة. قال محمد بن أبي الفضل الهاضمي. قلت لأبي: لم تجلس إلى فلان وقد عرفت عداوته؟ قال: أخبي ناراً وأقدح ودا.

أما إذا لم يتم إطفاء العداوة تماما فإن أضعف الإيمان أن يمنع المرء الجرح من أن يتسع.

قال عقال بن شبة: كنت رديف أبي فلقيه جرير الشاعر على بغل، فحياه أبي ولاطفه. فلما مضى قلت: أبعد ما قال لنا وما قال؟ قال أبي: أفأوسع جرحي.

وقال أحد حكماء بني أسد:

وأمنحه مالي وودّي ونصرتي ... وإن كان محنيّ الضلوع على بغضي

وهناك المدارة الرحيمة الرفيقة التي يرجى منها صرف إنسان عن عمل أو قصد، ولكنَ في صرفه إيلاماً له، فيلجأ الإنسان إلى هذه المداراة التي لا يحس معها المرء بالألم وقسوة الحياة.

فقد أصاب الكسائيّ وضح (برص)، وهو مؤدب أبناء هارون الرشيد، فكره الرشيد ملازمته لأولاده فقال له: كبرت في السن ولسنا نقطع راتبك، وأمره أن يختار لهم من ينوب عنه ممن يرضاه، فاختار لهم علي بن الحسن المعروف بالأحمر.

وتعتمد المداراة على ذكاء الشخص وحسن تصرفه، فهو الذي يقدرها بما يتناسب والشخص الذي يداريه.

وتكون مداراة الشخص الذي يرجى صلاحه، وعوده إلى رشده فوق مداراة ذلك الذي شب على عوج الخلق ولؤم الطبع، إلى درجة استحال معها إصلاحه، إذ إنّ المداراة تزيده فحشا، بل تزيده اختلاقاً وتزويرا.

واضح إذن أن المداراة لا تصدر عن ضعف أو جبن، بقدر ما تعتمد على اتقاء الشر ودفع الأذى، لأن المداري عليه أن يحفظ ظهر عدوه بعدم مقابلته بمثل أذاه في ظهره.

أما ما نراه في حياتنا فهو المداراة الصادرة عن رهبة فإن المداري يستخدم ذكاءه وفطنته في مداراة الآخرين، حتى إذا انقلبوا عنه أخذ ينهش لحومهم ويهتك ستورهم.

وشيئاً فشيئا إذا بالمدارة تستحيل إلى مداهنة، وإذا بالمداري يتحول إلى مداهن. وبقدرة قادر تنقلب حسناته في المداراة إلى سيئات في المداهنة، لأنه خان اللسان الذي قال فيه رسول الله صلى الله وسلم "رحم الله امرأ قال خيراً فغنم أو سكت فسلم".

فقد قال هذا الإنسان في أول أمره خيراً بالمداراة وخاف الله فيها، ولكنه لم يخف الله حين أطلق لسانه في الظهر فكان ممن قال فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم "من خاف الله خوف الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله خوّفه الله من كل شيء" وصدق رسول الله

المهـــور

يكاد أو كاد المهر يصبح ظاهرة عامة تستدعي الوقوف عندها، لما لها من الأثر السلبي في بيئتنا ومجتمعنا.

والشيء البارز في الظاهرة هو التغالي في مسألة المهور والتفنن فيها، من خلال المنافسة التي تعود بالضرر على الفتاة أولاً وأخيراً. وهذا يدفع الشاب بالتالي إلى الهروب أو التمرد على عرف مجتمعه وتقاليده، فيندفع وراء البحث عن أيسر السبل التي لا يتحمله الجهد الجسديّ والنفسيّ، فبتنا نرى الكثير من شبابنا يسافرون إلى البلاد المجاورة لأيام قلائل، يعودون بعدها بزوجات غريبات، اختصرن معهن الشوط الطويل في المهور بشروطها وحدودها وقيمتها وهكذا.

والإسلام وهو دين البشرية العدل قد حفظ للمرأة كرامتها، وأحاطها بسياج عدل لا ينفذ من خلاله ظلم كائن من كان. فقد كانت المرأة في الجاهلية مهضومة الحق، مهيضة الجناح، حتى إن وليها كان يتصرف في خالص مالها، ولا يدع لها فرصة التملك، ولا يمكنها من التصرف. فكان أن رفع الإسلام عنها هذا الإصر، وفرض لها المهر، وجعله حقاً على الرجل لها، وليس لأبيها ولا لأقرب الناس إليها أن يأخذ شيئاً منها إلا في حال الرضا والاختيار. قال تعالى: "وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً، فكلوه هنيئاً مريئا". (النساء:٤).

فإذا أعطت الزوجة شيئاً من مالها حياء أو خوفاً أو خديعة فلا يحل أخذه قال تعالى "وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبينا. وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض، وأخذن منكم ميثاقاً غليظا". (النساء :٢١و٢٢).

والمهر أو الصداق في مفهومه الإسلاميّ يحفظ على المرأة كرامتها، بعيداً عن مفهومه الاجتماعي الذي اكتسبه من المغالاة فيه. فهو كما جاء به الإسلام يطيب نفس المرأة ويرضيها، بقوامة الرجل عليها، وهو ترضية لنفسها وتهيئة لها تهيئة تبقي عليها عزتها، وتشعرها بصيانة الرجل لها وحمايتها في المستقبل، مع ما يضاف إلى ذلك من توثيق الصلات، وإيجاد أسباب المودة والرحمة. قال تعالى: "الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم:. (النساء:٣٤).

اما قيمة المهر فلم تجعل الشريعة حداً لقلته أو لكثرته، إذ الناس يختلفون في الغنى والفقر، ويتفاوتون في السعة والضيق، ولكل جهة عاداتها وتقاليدها، فتركت التحديد ليعطي كل واحد على قدر طاقته، وحسب حالته وعادات أهله.

ولكن الشرط الذي وضعه الشرع للمهر هو أن يكون له قيمة بقطع النظر عن القلة والكثرة، فلو تزوجها بصداق يسير ولو ملء كفه طعاما من قمح أو دقيق فإنه يصح، ولكن يسن أن لا ينقص المهر عن عشرة دراهم، لما رواه جابر مرفوعا "لو أعطى رجل امرأة صداقاً ملء يده طعاماً كانت له حلالا".

وهذا يشعر أن الصداق أو المهر ليس مقصوداً لذاته في الزواج، وإنما هو مقصود للإشارة إلى أن الرجل ملزم بالإنفاق على المرأة من أول الأمر.

ومن هنا نرى أن الشرع قد يسر المهر لتيسير الزواج، لما في تيسيره من حل لمشكلات كثيرة معقدة قد تضر بحياة المرأة والرجل على حد سواء. إذ يجوز أن

يكون المهر خاتماً من حديد أو قدحاً من تمر أو تعليماً لكتاب الله وما شابه ذلك إذا تراضى المتعاقدان.

فعن عامر بن ربيعة أنّ امرأة من بني فزارة تزوجت على نعلين فقال رسول الله "أرضيت عن نفسك ومالك بنعلين فقالت: نعم. فأجازه".

وعن سهل بن سعد أن النبي (ص) جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله إني وهبت نفسي لك فقامت قياماً طويلاً. فقام رجل فقال: يا رسول الله، زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة. فقال رسول الله (ص): هل عندك من شيء تصدقها إياه! فقال ما عندي إلا إزاري هذا فقال النبي (ص): إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك فالتمس شيئا. فقال : ما أجد شيئا. فقال: التمس ولو خاتماً من حديد. فالتمس فلم يجد شيئاً. فقال له النبي (ص): هل معك من القرآن شيء؟ قال: نعم سورة كذا وسورة كذا يسميها. فقال النبي (ص): قد زوجتكها بما معك من القرآن.

وعن أنس أنّ أبا طلحة خطب أم سليم فقالت: والله ما مثلك يرد، ولكنك كافر، وأنا مسلمة ، ولا يحل لي أن أتزوجك. فإن تسلم فذلك مهري، ولا أسألك غيره، فكان ذلك مهرها.

وقد زوج سيد أهل المدينة من التابعين سعيد بن المسيب ابنته على درهمين، ولم ينكر عليه أحد، بل عد ذلك من مناقبه وفضائله. ولا سبيل إلى إثبات المقادير إلا من جهة صاحب الشرع.

أما من حيث الكثرة فإنه لا حد لأكثر المهر، فعن عمر رضي الله عنه أنه نهى وهو على المنبر أن يزاد في الصداق أو المهر على أربعمائة درهم، ثم نزل فاعترضته امرأة من قريش فقالت: أما سمعت الله يقول "وآتيتم إحداهنّ قنطارا".

فقال: اللهم عفواً. كل الناس أفقه من عمر. ثم رجع فركب المنبر فقال: "إني كنت قد نهيتكم أن تزيدوا في صدقاتهن على أربعمائة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما احب".

وعن عبد الله بن مصعب أن عمر قال: لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية من فضة. فمن زاد أوقية جعلت الزيادة في بيت المال. فقالت امرأة: ما ذلك لك. قال: ولم؟ فقالت: لأن الله تعالى يقول: "وآتيتم إحداهن قنطارا". فقال عمر: امرأة أصابت، ورجل أخطأ. كل ذلك يؤكد كره الإسلام المغالاة في المهور، وكلما كان المهر قليلاً كان الزواج مباركا. وإن قلة المهر من يمن المرأة.

فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي (ص) قال: "إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة". وقال (ص): "يمن المرأة خفة مهرها ويسر نكاحها وحسن خلقها، وشؤمها غلاء مهرها وعسر نكاحها وسوء خلقها".

رغم ذلك كله جهل كثيرون أو تجاهلوا حكمة الشرع في عدم المغالاة في المهور، مما أدى إلى كثرة الشكوى، وعانى الناس من أزمة الزواج التي أضرت بالرجال والنساء على السواء. ونتج عنها كثير من الشرور والمفاسد والانحرافات. وكسدت سوق الزواج، وأصبح الحلال أبعد منالا من الحرام. وماذا يكون حال مجتمع يتطلع فيه إلى الحرام؟ وإلام يؤول إليه الحال حين تصبح الثمرة المحرمة هي المقصد والهدف في دوامة التغالي في المهور، والاشتطاط فيها بلا داع أو مبرر غير المنافسة المقيتة المذمومة. ولو فكر أولئك المغالون لأدركوا أن عرض ابنتهم وشرفها الذي يقدمونه للرجل بالزواج أثمن من كل مال، وعلى أولئك أن يضعوا في كفتي الميزان الشرف والمال ويقدروا هم أنفسهم النتيجة ويراجعوا حساباتهم التقليدية.

ولكن ماذا عن دفع المهر. أعني تعجيله وتأجيله؟

يجوز تعجيل المهر – أي المقدم – وتأجيله، ولكن يستحب تعجيل جزء منه فقد روى ابن عباس أن النبي (ص) منع علياً أن يدخل بفاطمة حتى يعطيها شيئاً فقال: ما عندي شيء. فقال: فأين درعك الحطيمة؟ فأعطاه إياها.

مع ذلك أجاز الإسلام دخول المرأة قبل أن يقدم لها الزوج شيئاً من المهر. وكما هو واضح فإن ذلك ليس قاعدة عامة يقاس عليها. فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت "أمرني رسول الله (ص) أن أدخل امرأة على زوجها قبل أن يعطيها شيئا".

وقد عالج الإسلام زواج الصغيرة بما يتعلق بمهرها، إذ لا يجوز للأب أو وليّ الأمر أن يزوج ابنته الصغيرة بأقل من مهر مثلها، ولا يلزمها حكم أبيها في ذلك. فالمهر حق لها ولا حكم لأبيها في مالها، ولكن أباها هو من يقبض صداقها لأنه يلي مالها. أما إذا لم يكن لها أب ولا جد فلوليها الماليّ قبض صداقها، ولكن لا يتصرف فيه إلا بإذن من المحكمة المختصة.

وإذا قبض الأب المهر بحضرتها عُدَّ ذلك إجازة منها بالقبض إذا سكتت، وتبرأ ذمة الزوج، لأن إذنها في قبض صداقها.

وفي البكر البالغة العاقلة لا يقبض الأب صداقها إلا بإذنها، إذا كانت رشيدة كالثيب. وقيل: له قبضه بغير إذنها لأنها العادة، ولأنها تشبه الصغيرة.

ولكن ما الأحوال التي يسقط فيها نصف المهر أو كله عن الزوج؟

يجب على الزوج نصف المهر إذا طلق زوجته قبل الدخول بها. وكانت الفرقة منه لسبب آخر من ردة أو عمل ما يوجب حرمة المصاهرة. قال تعالى: "وإن طلقتموهنّ من قبل أن تمسوهنّ، وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح. وأن تعفوا أقرب للتقوى، ولا تنسوا الفضل بينكم. إن الله بما تعملون بصير". (البقرة:٢٣٧).

ويسقط المهر كله إذا عملت الزوجة عملا يوجب الفرقة بينهما، كما إذا ارتدت أو عملت شيئاً يوجب حرمة المصاهرة.

وهكذا يضع الإسلام الرجل في واحد من موازينها، هو ميزان المهر، فمن ارتقت به نفسه، وسمت مشاعره بتقواه، وعمل بروح الشرع وجوهره بإنصاف ابنته أو أخته بتيسير مهرها كان له ذلك عتقاً من النار فـ "من عال ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو أختين أو بنتين فأدبهن وأحسن إليهن وزوجهن فله الجنة".

صدق رسول الله (ص)

المداهنة

قال تعالى: "فلا تطع المكذبين ودوا لو تدهن فيدهنون". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه".

توحي الآية الكريمة والحديث الشريف إلى آفة خطيرة من آفات حياتنا. وهي المداهنة أي إظهار الرضا بما يصدر من الظالم الفاسق من قول باطل أو عمل مكروه.

وهذا كثير في حياتنا حتى إننا لنرى الشخص يلبس وجهين، يلاقي بهما إنسانيين متعاديين، ويصل الدهاء بالمداهن إلى إشعار كلا المتعادين بأنه معهما لأنهما على حق.

بل إنه يلاقي كُلاً منهما بوجه طلق ولسان عذب ينطويان على الضغينة، وذلك هو عين النفاق.

فالمداهنة جزء من النفاق وعلامة من علاماته إذ إن "آية المنافق ثلاث :إذا حدث كذب، وإذا وعد اخلف، وإذا اؤتمن خان. وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم". صدق رسول الله.

وهذه الآفة فن باطل لا يتقنه إلا الذين تمرسوا بهذه الآفات فأضحوا من أهلها. قال رسول الله (ص): "من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة". وقال ابن مسعود :"لا يكونن أحدكم إمعة. قالوا: وما الإمعة؟ قال: الذي يجري مع كل ريح".

أما ذو اللسانين أو الوجهين الذي نراه في حياتنا فهو من يلاقيك بطلاقة وبشاشة يشعرك معها أنه صديقك موضع ثقتك، وإذا به ينقلب بوجهه الآخر إلى طرف معاد، يلاقيه بما لاقاك به من حبور، حتى ليحس الآخر بأن هذا المداهن موضع سره.

وليس هذا فحسب، بل إن ذا اللسانين هذا يعمل وسيطاً بين المتعاديين المتنافرين، فينقل بينهما الأخبار التي تزيد في إضرام نار العداوة المستترة في النفوس، في الوقت الذي يُشعِر كُلاً منهما أنه يوافقه فيما يقول ويفعل.

قال مالك بن دينار: قرأت في التوراة بطلت الأمانة والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين. يهلك الله تعالى كل شفتين مختلفتين.

ومن المداهنة أن يثني إنسان على آخر في وجهه ويتملقه، ويجامله مجاملة نشعر معها أنه الصديق المخلص، ولكن ما إن ينصرف المداهن عنه حتى يطلق لسانه فيه، مؤلهاً ومختلقاً ومتزيدا.

قيل لابن عمر رضي الله عنه: إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول، فإذا خرجنا قلنا غيره. فقال: كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله (ص).

وهذا من شأنه أن يشعرنا يقيناً بأن هذا المداهن إنسان لا يوثق به، لأنه فقد في نفسه العزة والإباء، حتى باتت نفسه تحيا بل تموت في الهوان والمذلة والخضوع ومن هانت عليه نفسه هانت عليه نفوس الناس.

وتكثر صور المداهنين في مجتمعاتنا ومجالسنا، حيث نراهم- وهذه هي طبيعة حياتهم – يلتفتون دائماً إلى حيث المصلحة والنفع الدنيويّ، ويلتفون حول من يأملون خيره. ونجد المداهن بوقاً يردد ما يقوله فلان من الناس ممن يؤمل خيره، يؤكد كل كلمة يقولها، ويؤيد كل حركة تصدر عنه. يمدح إذا مدح، ويذم إن ذم – هكذا هو، ريشة تتقاذفها رياح الخضوع والصَّغار، حتى إنه لا يكاد يتكلم بلسانه الخاص، بل بلسان غيره.

وما يكاد هذا ينصرف ويأتي آخر مكانه، حتى يعود المداهن إلى سيرته مع الأول، ولكن الصورة الآن تنعكس. فالمذموم أصبح ممدوحاً، والممدوح أضحى مذموما. وهكذا دواليك دولاب يدور، ويدور المداهن معه.

هذا ما نراه في حياتنا، الناس مع الواقف. والويل كل الويل لهذا الواقف إذا قعد أو وقع، عندها يكثر الشامتون، وما أكثرهم.

والمداهن شر الناس وأبعدهم عن ساحة الله سبحانه، ذلك لأنه باع للشيطان نفسه، وفقد ثقته بنفسه، حتى بات رخيصاً يرتمي في طريق هذا أو طريق ذلك عله يكسب صاحباً مؤقتا بتوقيت مداهنته له فحسب.

وهذا المتلون شخص مجبول على الكذب وخلف الوعد، فهو سريع في إطلاق وعوده الخرافية التي تأبى الإنجاز لضخامتها.

أما السبب في هذا فهو يقينه بعدم إنجازها، وإذا سئل عن سبب خلفه الوعد، افتعل ألف سبب وتعلة. موحياً لك في الوقت ذاته أنه صادق فيما يدعي.

قال صلى الله عليه وسلم: "أبغض خليقة الله إلى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون الذين يكنون البغضاء لإخوانهم في صدورهم، فإذا لقوهم تملقوهم، والذين إذا دعوا إلى الله ورسوله كانوا بطاء وإذا دعوا إلى الشيطان وأمره كانوا سراعا".

وقليل من الناس من يقف في وجه المداهن، ويرده عما هو فيه. إذ إن هذا يتطلب الجرأة التي تكون ناقوساً يدق فوق رأسه فيردعه عما هو فيه من تقليب الوجوه وتغيير أقنعتها مع كل حالة.

وهذا ينتهي عادة بالثورة العارمة يفتعلها المداهن ليثير بها الرماد في عيون الحاضرين، منذراً بالقطيعة، ومهدداً بالويل والثبور عجزاً وقصورا.

كتب طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله بن طاهر: "وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من إذا رأى عيباً لم تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك في ستر، وإعلامك بما فيه من النقص، فان أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك لك".

وابتنى الخليفة عبد الرحمن الناصر القبيبة بقصر الزهراء، واتخذ لسطحها قراميد من ذهب وفضة. وجلس فيها إثر إتمامها، وقال لمن حضر مفتخراً: هل رأيتم أو سمعتم من فعل هذا من قبلي؟ فقالوا: إنك لأوحد في شأنك كله.

ولكن القاضي منذر بن سعد وعظه وعظاً بليغا، وتلا عليه قوله تعالى: "ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون" (الزخرف:٣٣).

فأطرق الناصر ملياً ثم أقبل على منذر وقال له: جازاك الله يا قاضي عنا وعن نفسك خيرا، وعن الدين والمسلمين أجل جزائه. فالذي قلت هو الحق وقام من مجلسه ونقض سقف القبيبة، وأعاد قرميدها ترابا.

أين نحن من ذلك السلف الصالح؟ بعد العهد، وطال الأمد. وباتت النفوس ترتع في ظلام الحياة المادية، تسوقها الغرائز والموبقات. فإذا بها نفوس تتشاحن وقلوب تتنافر.

وفي غمرة هذا كله تعيش الفئة القليلة التي عرفت طريق الله، أولاء هم أهل الله، حيث لا تغريهم قشور الحياة، فارتفعوا عن سفاسفها، وعفوا عن محارمها فأكرمهم الله سلام النفس وطمأنينة الفؤاد. أولئك هم حزب الله "ألا إن حزب الله هم المفلحون". صدق الله العظيم

المعاملة بالمثل

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "زر غباً تزدد حبا".

الحديث الشريف هو البداية التي انطلق منها في ملمح دقيق من ملامح الإنسان في علاقته مع نفسه من خلال مجتمعه تفاعلاً، وتعاملاً، وتعايشاً. وبمقدار إحساس المرء بنفسه، بقيمتها، بعزتها، بكرامتها، يكون تعامله مع غيره، فمن مقومات نفسه أولا ينطلق في المجتمع الصغير والكبير على حد سواء، ما دامت القاعدة التي ينطلق منها في حياته وسلوكه واحدة.

ولكل إنسان خلفية نفسية يبرزها ويجليها سلوكه في الحياة، ويجسدها تفاعله مع من حوله، أما تفاعلاً كليا، بما ينجم عنه من علات، أو تفاعلاً يكون أساسه "شعرة معاوية" التي لا تنقطع بفعل الأخذ والرد حسبما يقتضيه الحال. والعاقل من يعرف متى يشد الشعرة بينه وبين الناس، ويدرك متى عليه أن يتركها أو يرخيها، كل ذلك حتى لا تنقطع، ويكون صاحبها الخاسر دائماً، فالإنسان خلق ملولا، وما يرضيه في لحظة من اللحظات قد لا يرضيه في لحظات أخرى، والعاقل الحكيم من يدرك متى يقترب من الناس، ومتى يبتعد عنهم، حتى لا تهون نفسه على غيره، فإن النفس

تهون عند الناس متى هانت عند صاحبها. وبمقدار معرفة الإنسان قيمة نفسه يقف الناس منه، فإما احترام وإما امتهان.

وتكريم الإنسان نفسه لا يقرره سواه، فهو الذي يعرف قدر نفسه، "ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه"، وهو نفسه الذي يعلم عن نفسه ما لا يعلمه أحد. وهو العليم بمقومات نفسه ومكوناتها، ومنها فأي حكم يصدر عن إنسان بشأن آخر فهو حكم جائر لا روية فيه.

والإنسان كما هو معروف بخلفية وواجهة، بمعنى أن له جوهراً ومظهرا، والمؤمن من تكون واجهته انعكاساً لخلفيته، لنفسه، لمشاعره، لأحاسيسه، لخبرته وثقافته، أما إذا كانت تلك الواجهة مخالفة لذلك الجوهر فإن صاحبها يدخل في عوالم أخرى من النفاق والرياء، وهذا ليس من الاحترام في شيء.

أقول: وليس من يقرر قيمة النفس غير صاحبها. من هنا كان اختلاف الناس في الحكم على إنسان ما، فأي حكم يصدر في حق إنسان هو حكم جائر، فمن الناس من يخدع بالمظاهر والشكليات، وانطلاقاً من هذا يأخذون في إلقاء الأحكام التي لا تنبعث من تفكير عميق، وتجربة نافذة، فنسمعهم يقولون مثلا: فلان عظيم، فلان جواد، وفلان صادق ومخلص. أو فلان كاذب أو منافق أو وهكذا. فإذا سألت: وما الدافع إلى ذلك الحكم قالوا: شكله يدل على ذلك، أو حديثه ينم عن ذلك. وكأن الإنسان بكل ما في أعماقه، بكل ما في صدره، بكل ما في رأسه آلة خرساء يحكم عليها بأنها قديمة أو جديدة وينتهي الأمر. ونسوا أو تناسوا أنّ الإنسان بمخبره لا بمظهره، والمرء بأصغريه قلبه ولسانه. فهل من اليسير بعد ذلك الحكم على القلب واللسان في لقاء واحد؟ وهل من السهل أن ترسم صورة الإنسان بكل أعماقه في جلسة واحدة؟.

ومن الذي يقرر صفة الإنسان غير الإنسان نفسه؟ فهو في كل لحظة يغترف من أعماقه فيظهره سلوكا، ودخيلة نفسه هي التي تتحكم في خطاه، وحصيلة أيامه بحلوها ومرها هي التي توجهه.

ومع ذلك، فلن أقول ما دام الأمر مرهوناً بمكونات حياة الإنسان وظروفه، فلم نحاسبه على ما يفعل إذن؟

كل ذلك ليس إلا أضواء كاشفة لأعماقه من خلال دستورنا ومنهجنا الشامل الكامل، دستور الخير، ففيه هداية بصائرنا قبل أبصارنا، وفيه سعادة حياتنا، وفيه الخير كله. والخير هو ما يسعد الإنسان السعادة الباقية على نفسه في عزتها وعزها. وأول ما يبقي على النفس جلالها أو ينفيه عنها مخالطة الناس، وأحصر هذه المخالطة في زيارتهم، زيارة من تألف هذه النفس. حتى أولئك الذين تألفهم النفس، فإن لزيارتهم آداباً وأصولا، حتى تبقي على الإنسان مهابته وكرامته. قال رسول الله (ص) "زر غباً تزدد حبا". وغبا تعني الزيارة البعيدة غير المتتابعة. وقد قال في هذا المعنى كثيرون:

(أقلل زيارتك الصديق تكون كالثوب استجده.) وقال بعض المحدثين: إذا شئت أن تقلى فزر متتابعا وإن شئت أن تزداد حبا فزر غبا

والرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف يجسد مشاعر الإنسان، ومزاجه، الملول المتقلب، وما أسرع ما يتقلب قلب الإنسان. قال تعالى: "ونقلب أفئدتهم وأبصارهم". وما أشد ما يتلون شعوره وحسه في ذلك القلب الذي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدرك سره في تقلبه فيحلف به ويقول: "لا ومقلب القلوب". وكان (ص) يقول" يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك. قالوا: أو تخاف يا رسول الله؟ قال: وما يؤمنني والقلب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء". ويقول (ص) :" مثل القلب في تقلبه كالقدر إذا استجمعت غليانا".

كل ذلك يؤكد التقلب وعدم الثبات في قلب الإنسان، ويؤكد أيضاً ولعه بالجديد وحب التجديد، في المأكل، في الملبس، في علاقاته الكثيرة السريعة المتلونة مع من حوله. والعاقل من يدرك ذلك كله فيتهيأ له، والعاقل من يعرف متى يدنو من الناس، ومتى يبتعد عنهم. ويعرف متى يزور الناس ومتى يمتنع عن زيارتهم فإن تتابع الزيارات تجرئ على الإنسان من هم دونه "وإن أجرأ الناس على الأسد أكثرهم له رؤية". وهي في هذا تقليل من قيمة نفسه التي لا يعرفها سواه، وحط من قدره الذي يقف عنده. وإلا فما مفهوم قوله تعالى: "ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم". (الأنعام:١٦٥).

فهل الدرجات بالمال؟ أو هي بالمظهر؟ إنها اعظم من ذلك كله، فالدرجات – كما اعتقد – في أمور صادرة من جوهر الإنسان في قراره وأعماقه. إنها درجات الإيمان والفهم والإدراك والعمل بما شرع الله، والتسلح بتقواه سبحانه، في سلوكه وفعله "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات". (المجادلة:١١).

وإلا فكيف يحفظ على العالم هيبته وتسمع حكمته؟ وهو من قال فيهم سبحانه: "إنما يخشى الله من عباده العلماء". وهذا يؤكد ما للعالم من أثر عظيم في الإرشاد والتوجيه، ومنه يندفع هذا العالم دفعاً في طريق تحفظ عليه كرامته، يقول سفيان بن عيينه:"لا تعفروا الأقدام إلا إلى أقدارها". وإلا كان حاله كمن قيل فيهم "أزهد الناس في عالم أهله".

وأعظم الأدواء أن يرغم إنسان ما على أن يتناسى علمه، ويسف إلى درجة دون التي يقف عندها في نفسه مجاراة لمن يخالط أو يزور، فقد يكون من يخالطهم أو يزورهم متتابعاً لا يقدرون قيمة ما في صدره من علم، وما في عقله من ذخيرة، فيترتب على ذلك بالضرورة ألا ينظروا إليه إلا بمنظار عقولهم، ويعاملوه بمقياس نفوسهم ومعدهم، فيصبح مع تتابع الزيارات واحداً منهم، بعيداً عن تكريم العقل، بعيداً عن تعظيم تقوى القلب، وأمر من ذلك كله أنهم يتحولون عنه إلى سواه،

ويجدون في تكريم الزائر الجديد، والالتفاف حوله، مغفلين تماماً ذلك الذي تعود على الإكثار من زيارتهم، حتى يضحي لا وجود له في مجلسهم، فأي مرارة يصاب بها ذلك الإنسان؟ وأي إهانة يتجرعها من أولئك الذين توهم أنه سيكرمهم بزياراته، ويرتقي بهم في أحاديثه إليهم؟ وماذا يجد ذلك الإنسان غير الفراغ والضياع، حيث لم يعد يجديه غير الفرار إلى صومعة العلم ومحراب الفكر، فهناك يجد نفسه مهيبة عزيزة، عزة الغيث إذا هو أمسك.

عليك بإغباب الزيارة إنهـــا إذا كثرت كانت إلى الهجر مسلكا

فإني رأيت الغيث يسأم دائباً ويســـأل بالأيـــدي إذا هو أمسكا

دور رعاية الأيتام

قال صلى الله عليه وسلم: "من مسح برأس يتيم لا يمسحها إلى الله كان له لكل شعرة حسنة".

كم تألمت وسعدت، كم حزنت وفرحت..في لحظة واحدة، إذ لم تمر في حياتي لحظة جمعت بين الألم وضده كما حدث في تلك اللحظة التي شهدت فيها التحقيق التلفزيوني المصور الذي قام به مندوب التلفزيون الأردني في دار رعاية الأحداث مساء الجمعة الموافق ١٩٧٨/٢/٣.

في تلك اللحظة أو اللحظات عدت بالذاكرة إلى الماضي الدافع إلى المستقبل، إلى دار تقف بشموخ في أحد أحياء القدس الجديدة منذ عام ١٩٤٨، وهذه الدار هي "دار الطفل العربي"، وقد بدأت منذ أوائل الستينات تخرج إلى الحياة أعضاء نافعين في المجتمع، وكلهم ممن حرموا طفولتهم السعيدة، تحت أي ظرف من ظروف الحياة القاسية القاهرة.

ولست هنا في صدد الحديث عن تلك الدار العظيمة_ ولكن أود أن أدخل من خلالها إلى موضوعي هنا، بعد أن أمس مساً رقيقاً رسالة تلك الدار في شخص صاحبة الدار، فقد أعطت ولا تزال تعطي بناتها في الدار الحب والعطف، ليس حب الوالدين طبعا، ولكنه حب يوصف في معيار الحياة بأنه بلسم يمنح القوة والثقة في مواجهة مصاعب الحياة. وهذا في تصوري كاف تماماً لمن تكتب عليه الحياة في مثل تلك الدور. وفي البداية والنهاية تخرج ويتخرج في تلك الدار الكثيرات، ومعظمهن بفضله سبحانه كتب الله لهن التوفيق. ومن هنا أقول، وليس بالحب وحده يحيا الإنسان، فهناك الضروريات لدعم الحب، وهذه هي: المأكل والملبس والدفء والمنامة المريحة التي تخفف من قسوة خيالات الليل ومرارة أحلامه، والتي تحمل في كثير منها ومضات الحياة المرتقبة.

ولن أتحدث أيضاً عن دار رعاية الأحداث بالذات، بل أتحدث عن تلك الدور عامة، عن الأطفال فيها، عن كل طفل فقد أحد جناحيه في الحياة، أو جناحيه كليهما.

وكلنا يعرف، وكلنا يدرك ويحس بما يؤول إليه الحال آنئذ. ريشة تتلاعب بها الرياح في كل اتجاه، يجسمه ضياع وتشرد وحرمان وفراغ ومذلة. ولو استطاع ذلك الطفل أن يعبر عن مكنون حاله لقال: إنّها بئر لا قرار لها يهوي إليها كل يوم بل كل لحظة من حياته شيئاً فشيئا، دون أن يشده إلى خارج البئر شيء أو إنسان، أو قال إنها أي الحياة غول هائل رهيب، ضحاياه كلهم من الضعفاء، على رأسهم أطفال تكسرت أجنحتهم قبل أن يطيروا.

انظروا الآن إلى وجوه أطفالكم، إلى عيونهم البريئة، ويقيني أنكم ستضمونهم إلى صدوركم بشدة هلعاً وفرقاً من مجرد التفكير، أي تفكير يشد الأعصاب، ويشل التفكير ولو لطرفة عين.

وأعود الآن إلى هذه الدور، فأقول: استناداً إلى رسالة الدار التي بدأت بها حديثي فان العنوان الذي ينبغي ان تعرف به كل الدور هو الرحمة والرحمة والرحمة. وهذه اللفظة تضم في ثناياها كل ما يحتاجه الطفل الذي تميزه ظروفه القاسية.

والرحمة مشتقة من الرحمن الرحيم، وهذا يعني العطف والرقة واللطف والكرم والمنة والحلم، قال (ص): "والذي نفسي بيده لا يضع الرحمة إلا على رحيم قلنا: يا رسول الله، كلنا رحيم. ليس الرحيم الذي يرحم نفسه وأهله خاصة، ولكن الرحيم الذي يرحم المسلمين". وقال (ص): "من لا يرحم لا يرحم، ومن لا يغفر لا يغفر له". وقال (ص): "قال الله عز وجل: إن كنتم تريدون رحمتي فارحموا خلقي".

فالرحمة كما يفهمها الطفل في هذا الدور هي الأمان الذي يعطاه عند أول خطوة يخطوها في الدار التي كتبت عليه، والأمان هو جرعة طمأنينة تبعد عنه الخوف والقلق ولو للحظة دخوله الدار فحسب.

والرحمة في مفهوم ذلك الطفل كذلك هي اللقمة يأكلها بما يسد جوع معدته الصغيرة، فشبعه يعني تناسي همه وضياعه في عالم مجهول، والألم كل الألم إذا بات هذا الطفل طاويا، معنى ذلك أن تراوده الخيالات التي تجسم أمامه الخوف والرهبة والفزع والفراغ اللامتناهي الذي يلتهم كل شيء.

والرحمة في منطق الطفل تعني الدفء خاصة، وبمعنى أدق هي الملابس التي تدفئ جسمه الصغير الطري مما يقيه شرور البرد التي تضيق الحياة في وجهه، وتحيلها إلى سرداب مخيف طويل مظلم لا نهاية له، ويزيد من شعوره هذا حرمانه العطف الطبيعيّ والحنان الفطريّ الذي أوجده الله تعالى في جناحي الطفل.

والرحمة فوق ذلك في حس الطفل وشعوره أن يبعد عنه المرض، وهذا يعكس عنده في الأعماق اهتمام من حوله به. وإثارة الطفل انتباه من حوله واهتمامهم أمر بدهيّ، فإذا وجد مثل ذلك الاهتمام – حتى وإن كان في الظاهر فحسب – فإن الطفل

يتمكن به من مقاومة ما يلم به ليشارك أقرانه لعبهم ومرحهم، واللعب والمرح علامة من علامات الصحة والعافية في الطفولة، أي طفولة، يستوي فيها الطفولة السعيدة والمعذبة.

واللعب إلى جانب ذلك يعني حلبة المنافسة الأولى التي يدخلها الطفل، ومنها ينطلق إلى المنافسة المضنية في ملعب الحياة الفسيح الرهيب، حيث لا رحمة إلا رحمته سبحانه وتعالى.

فالرحمة قبل ذلك وبعد ذلك هي الحماية والأمان، وماذا يحتاج الطفل غير الحماية والأمان؟

وهي أيضا طمأنينة الجوارح وسلام النفس. ومن الطفل الذي يستغني عن طمأنينة الجوارح وسلام النفس؟ ليكون طفلاً معافى القلب والحس والعقل والجسم، فيرتد هذا عليه في حياته عزة وعزيمة وقوة وصلابة في مجالدة الأيام، ومقارعة لياليها، دون أن يهن أو يضعف أو يذل. بل إنه يزداد تماسكاً كلما قست عليه الأيام، لأنه تخرج في مدرسة الأيام، وأتقن مناهجها التي لقنها منذ الصغر، فتتفجر بهذا طاقاته الجبارة الكامنة في أعماقه، والتي اتخذت التحدي شعاراً لها.

وعود على بدء إلى الدور المؤمنة بحق الطفولة المقدس في الحياة الآمنة العزيزة الكريمة. فالله سبحانه قد أعد الجزاء الأوفى للقائمين عليها والمساهمين فيها بأي قدر من مالهم، وبأي قدرة من قدراتهم قال سبحانه، "من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون".(النحل:٩٧).

وقال (ص): "خير البيوت بيت فيه يتيم يحسن إليه". فكيف الحال ببيوت أوقفت رسالتها على خدمة الأيتام؟

ويستطيع كل إنسان أن يخدم اليتيم مادياً أو أدبياً، فإن المادة تحفظ عليه كيانه في العيش. أما الخدمة الأدبية فهي القوة النفسية التي تتولد عن الرحمة التي يمد المؤمن قلبه ويده بها إلى اليتيم، وهذه القوة هي الركيزة التي يقوم عليها كيانه الماديّ.

وأبسط ألوان الخدمة الأدبية ما ذكره رسول الله (ص): "من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمر عليها يده نور يوم القيامة".

ومع ذلك، فلا أتصور إنساناً – مهما كانت قدرته المالية – لا يستطيع أن يمد يد الرحمة إلى أولئك المعذبة قلوبهم، الموزعة مشاعرهم، الدقيقة الرقيقة أحاسيسهم. ومن يحدد هذه الرحمة عيون أطفالنا، إذ يكفي أن ينظر كل منا في عيون أطفاله، فتحدد الرحمة عيونهم وقلوبهم الصغيرة البيضاء "وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً" (المزمل:٢٠).

وبهذه الرحمة التي تجود بها نفسه من خلال عيون أطفاله يأمن من فزع اليوم الأكبر، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت، ويوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه "من جاء بالحسنة فله خير منها، وهم من فزع يومئذ آمنون". (النمل:٨٩).

والذي يشفع للإنسان في ذلك اليوم ما قدم من خير في حياته الدنيا، مهما كان عمله الخير صغيرا "يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله. إن الله لطيف خبير". (لقمان:١٦).

وأحباء الله تعالى هم المؤمنون المتقون الذين يسارعون في الخيرات السابقون إليها "أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون". (المؤمنون:٦١).

صدق الله العظيم

النميمة

قال تعالى: "ويل لكل همزة لمزة" والهمزة النمام، وقال سبحانه:"هماز مشاء بنميم".

والنميمة هي إحدى آفات اللسان، بل إنها اخطر هذه الآفات، بما تزرع في القلوب من أحقاد، وما تثير في النفوس من ضغائن، بحيث تصبح الكلمة بل الحرف سبباً في إشعال نار لا تبقي ولا تذر بين الأفراد والجماعات. فيبدأ النمام بكلمة يتفنن في نقلها، بما يضفيه عليها من خبث نفسه، وحسد قلبه، وحقد مشاعره. فلا تلبث هذه الكلمة أن تصبح كلمات جديدة لا عهد لها بالأصل الذي بدأت منه. فيدور النمام بهذه الكلمات بين الناس، ويسعى بغيرها بينهم، بما يسعفه به خياله المريض، وخبثه وكذبه وغدره وغيبته، فإن النميمة مبنية على الكذب والحسد والنفاق. وهي أثافيّ الذل.

وقد تعود النمام على النميمة حتى أضحت الدم الذي يسري في عروقه، فإن ما يؤلم النمام أن يبقى الناس في أمان، وإن ما يضني النمام ويضايقه أن يسود الصفاء وأن ما يؤرق النمام أن يهدأ الناس من حوله بلا قيل أو قال فينتفض ليثير القلوب وينفرها بحقده وحسده ونفاقه

إن القلوب إذا تنافر ودها　　　مثل الزجاجة كسرها لا يجبر

وفي الوقت ذاته يجهل ذلك النمام أو يتجاهل أنه بنميمته وحسده يأكل نفسه، ويحرق قلبه.

اصبر على كيد الحسود فإن صبرك قاتله

النار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

والنمام مبغض إلى الله سبحانه، ومحرم عليه الجنة "لا يدخل الجنة نمام". كما وروى عن رسول الله (ص): "...وإن أبغضكم إلى الله المشاعون بالنميمة المفرقون بين الإخوان، الملتمسون للبرآء العثرات".

والنمام لا يكون صادقا أبداً، فالنميمة تتعارض مع كل صفة محمودة وأولها الصدق.
روي أنَّ سليمان بن عبد الملك كان جالساً وعنده الزهري، فجاءه رجل فقال له سليمان: بلغني أنك وقعت فيّ وقلت كذا وكذا. فقال الرجل: ما فعلت ولا قلت؟ فقال سليمان: إن الذي أخبرني صادق. فقال له الزهري: لا يكون النمام صادقا. فقال سليمان صدقت. ثم قال للرجل اذهب بسلام.

والنميمة أخت الغيبة وشريكتها في هدم كيان المجتمع، بل إن النميمة أكبر خطراً، وأبعد أثراً من الغيبة، فهي سبب كل قطيعة بين الأفراد، فما اختصمت الإخوة، ولا تقطعت الأرحام، ولا تفرقت الأصدقاء، ولا تنافرت الجيران، ولا تباغضت الأزواج إلا بالنميمة، فإن النمام قد أوتي حظاً من الغباء وانعدام الضمير، بحيث أخذ يبث قيله وقاله هنا وهناك بين هذا وذاك،وبين هذي وتلك. ماتت نفسه اللوامة فبات يسعى بين الناس بالشر والفساد، يشجعه على ذلك تشنيف من حوله آذانهم لسماعه، ويأخذون في شحذ خياله بأساليب الإثارة المتعددة الألوان والصور، فيهيئون له الجلسة المريحة التي تشعره وهماً أنه مالك زمام الأمور وقيادها – ما دام بعيداً عمن ينم عنه – فيسهب ويطنب، ويعيد ويزيد، ويبرق ويرعد، ويتحمس تارة ويفتر طورا، كل ذلك بمقدار ما يصيبه من شحنات إثارة السامعين. وهؤلاء السامعون نسوا أو تناسوا أن السامع شريك القائل، بل هو أخطر من القائل نفسه، إذ إنّ سماعهم وتشجيعهم يشجع النمام على المضيّ في طريق الضلال "سماعون للكذب أكالون للسحت". وإن استثارة السامع للنمام مردودة عليه، فإن من ينم إليك ينم عليك، وإن من يؤلف ويفتري على غيره لك يفتري عليك ...وهكذا.

لاتقبلــــــنَ نميمة بلغتهـــا	**وتحفظنّ من الذي أنباكـــها**
إن الذي نباك عنه نميمة	**سيدب عنك بمثلها قد حاكها**

ولكن ما جزاء النمام وما عقابه؟ وكيف يؤدب؟

أما تأديبه الأدبيّ الموجع فهو عدم سماعه وتقريعه، فهو كاذب وفاسق مردود الشهادة "يا أيها الذي آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ، فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين".

ويؤدب أيضا بتحقيره وإشعاره بهوانه، إذ لو كان النمام مخلصاً لمن ينم إليهم لدافع عنهم في غيبتهم، ولحمى ظهرهم من أن يصاب بأذى، ولكن داءه نابع من ضمير ميت يجعله بلا هدف أو هوية، فنراه مبعثر الخاطر، مشتت الأهواء، لا يثبت في رأي على حال، إذ لا رأي له، ولا يقر له قرار، فالنميمة لا محل لها ولا استقرار. قال رجل لعمرو بن عبيد: إن الإسواريّ ما يزال يذكرك في قصصه بشر، فقال له عمرو: يا هذا ما رعيت حق مجالسة الرجل حيث نقلت إلينا حديثه، ولا أديت حقي حين أعلمتني عن أخي ما أكره. ولكن أعلمه أن الموت يعمنا، والقبر يضمنا، والقيامة تجمعنا، والله تعالى يحكم بيننا،وهو خير الحاكمين.

فالنميمة آفة تضع بصاحبها، وتذله وتحقره، قيل لمحمد بن كعب القرظي: أي خصال المؤمن أوضع له فقال: كثرة الكلام وإفشاء السر، وقبول قول كل أحد. أما مذلة الخزي التي تلحق النمام فهي مذلة اليتيم، بل فوق مذلة اليتيم، فهي مذلة تفقده كل شعوره بالأمان في رحاب الجماعة والمجتمع والأفراد. قال لقمان لابنه: "..واحفظ إخوانك وصل أقاربك، وآمنهم من قبل قول ساع أو سماع باغ يريد فسادك، ويروم خداعك. وليكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك.

ويقال: إن رجلا اتّبع حكيماً سبعمائة فرسخ في سبع كلمات. فلما قدم عليه قال: إني جئتك للذي آتاك الله تعالى من العلم. أخبرني عن السماء وما أثقل منها؟ وعن أرض وما أوسع منها؟ وعن الصخر وما أقسى منه؟ وعن النار وما أحر منها؟ وعن الزمهرير وما أبرد منه؟ وعن البحر وما أغنى منه؟ وعن اليتيم وما أذل منه؟ فقال له الحكيم: البهتان على البريء أثقل من السموات. والحق أوسع من الأرض.

والقلب القانع أغنى من البحر. والحرص والحسد أحر من النار والحاجة إلى القريب إذا لم تنجح أبرد من الزمهرير. وقلب الكافر أقسى من الحجر. والنمام إذا بان أمره أذل من اليتيم.

وما أكثر ما ينكشف أمر النمام، حيث يصبح ثوباً خلقاً لا يلبث أن يلقى بعيدا، وحيث يلفظ لفظ النواة حقارة ومذلة ومهانة. فإن "من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها في النار يوم القيامة"

قل خيراً أو فاسكت

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت".

يعتقد الكثيرون أنّ اسهل الأمور على نفس الإنسان هو الحديث، ويعبرون عن ذلك بمختلف الطرق، فمن قائل إن الكلام بلا ثمن فلم لا نتحدث؟ ومن قائل إن الحديث لا يتعب، فلم لا نكثر منه؟ وهكذا دون رابط أو حساب. فمثلا يسأل أحدهم آخر سؤالاً، فيأخذ يلوك لسانه بالجواب بلا هوادة أو توقف، متنقلاً من حديث إلى آخر دون أن ينتهي جواب السؤال وسبب ذلك الانسجام مع نفسه في الحديث، حتى إن كان ذلك الانسجام الذاتيّ على حساب الآخرين.

ويمدح إنسان آخر فيبدأ في الإسهاب والإطناب في المدح، ملوناً حديثه بشتى الألوان، فإذا سئل عن سر ذلك أجاب: وهل الحديث بثمن، فلأتحدث..

عن مطرف بن عبد الله عن أبيه: قدمت على رسول الله (ص) في رهط من بني عامر، فقالوا" أنت والدنا، وأنت أفضلنا علينا فضلا، وأنت أطولنا علينا طولا، وأنت الجفنة الغراء، وأنت أنت فقال: "قولوا قولكم ولا يستهوينكم الشيطان". إشارة إلى أن

اللسان إذا أطنب بالثناء ولو بالصدق، فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها.

وفي هذه الزيادة المستغنى عنها قال رسول الله (ص): "طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه، وأنفق الفضل من ماله".

ويجهل الكثيرون أو يتجاهلون أن الحديث بثمن، بل إنه أثمن الأشياء فان ما يستعبد الإنسان هو الكلمة إذا صدرت عنه، وهو يستعبدها إذا احتفظ بها، أو وزنها قبل أن يتحدث بها.

وقد قيل الكثير في الحديث وأدبه، ولا بد للمتحدث من مستمع، فقيل في أدب الاستماع. "رأس الأدب كله حسن الفهم والتفهم والإصغاء للمتكلم". فكما أن الحديث فن من الفنون، فإن الاستماع توءم هذا الفن وصنوه، بل إن الاستماع أبلغ أهمية إذا ما قسناه في معيار ألسنتنا في مجتمعاتنا، فبينما يكون أحدنا في مجلس أو ما يسمى في عرفنا مجلسا، إذ بهذا المجلس ينقلب إلى سوق شعبيّ ينادي كل بائع فيه على بضاعته ويروجها، وهكذا كل مجلس، يبدأ بارداً، بمعنى أن فيه حديثاً واستماعاً، وإذا بالمجلس يسخن شيئاً فشيئا، أي لا استماع ولا مستمعون بل حديث من كل صوب وفي كل اتجاه فيصيبك دوار وأنت تجاهد كي تلتقط كلمة مفيدة تحلف معها إنك شهدت مجلساً أفادك ولكن الحمد لله، ولا يحمد على مكروه سواه. فقد استحالت المجالس إلى متحدثين يتحدثون ولا يسمعهم سواهم.

ولا أتصور أن سائلاً سيسأل عن ماهية الأحاديث التي تدور في المجالس، فإن الغبي بغبائه يدرك ذلك. إذ يشبع الجالسون من أكل لحم الميتة فيها، ويتعب المتحدثون من تبديل أثوابهم التي تعكس نفسياتهم، فتارة يلبسون ثوب الحمل حتى يسهل عليهم كشف الأسرار واستكشاف خباياها، وطوراً يلبسون ثوب المستأسد إذا ما أصابتهم شرارة من شرار الجالسين. فمثل تلك المجالس أو أكثرها لا تخلو من قذف الحمم في معارك ساخنة أو باردة تسببها كلمة أو إشارة وهكذا..

أقول: والاستماع هو صنو الحديث، وأدبه يؤلف بين القلوب المتنافرة. وذلك الأدب هو أن يقبل المستمع على المتحدث بوجهه وعينيه. فان ذلك مما يشعر المتحدث بأهمية حديثه، ويدفعه إلى إتمام الحديث بشغف حسن تفهم المستمع حديثه.

أما إذا تشاغل المستمع في أثناء الحديث، فإن على المتحدث أن يقطع حديثه وينهيه ليحرم المستمع من فائدته. قال الحسن البصريّ "حدثوا الناس ما أقبلوا عليكم بوجوههم". وقال أبو عباد الكاتب "إذا أنكر المتكلم عين السامع فليسأله عن مقاطع حديثه والسبب الذي أجرى ذلك له. فإن وجده يقف على الحق أتم له الحديث، وإلا قطعه عنه، وحرمه مؤانسته، وعرفه ما في سوء استماع عن عدم المروءة والحرمان للفائدة".

ومما يثير العجب في هذه المجالس استحالتها إلى شبكة خطوط سلكية ولاسلكية. فلا يلبث أحدهم أن يبدأ الحديث حتى تدخل عليه إشارة لاسلكية عاجلة فتقطع حديثه، وتتصدى لتلك الإشارة العاجلة إشارة أعجل منها تقتحم الخط، وإشارة ثالثة ورابعة وهكذا.. وبينما يتحدث أحدهم إلى فلان حديثاً خاصاً إذا به يلتفت ويرد على غيره ثم يعود ليتم حديثه، وكأن أذنيه قد سلطتا لالتقاط الإشارات الشاردة. قال الحكماء "من حسن الأدب أن لا تغالب أحداً على كلامه، وإذا سئل غيرك فلا تجب عنه، وإذا حدث بحديث فلا تنازعه إياه، ولا تقتحم عليه فيه، ولا تره أنك تعلمه. وإذا كلمت صاحبك فأخذته حجتك فحسن مخرج ذلك عليه، ولا تظهر الظفر به، وتعلم حسن الاستماع، كما تتعلم حسن الكلام".

وفي تلك المجالس يأخذ الحماس الجالسين في فورة تحدثهم واستماع أنفسهم، فيلقى الكلام على عواهنه، وتوزع الوعود، وتعظم الآمال وهما. ألم نقل إنّ الحديث بلا ثمن؟ أما إذا هدأت الأنفاس وهجعت النفوس نسوا كل ما قد قالوا، وكيف لا ينسون والأحاديث والوعود بلا أساس أو علة ولم يكن ذلك إلا للاستهلاك الوقتيّ ولملء فراغ المجلس الذي تهدر فيه قوى نفسية بلا حساب، فيخرج أصحابها لاهثين

نادمين عل ما فرطوا من قول، متمنين لو يستطيعون إعادة الكلام إلى قرابه، ولكن الكلمة التي تخرج لا ترد. وقد قيل "الزم السكوت فإن فيه السلامة، وتجنب الكلام الفارغ فإن فيه الندامة".

وقال بعضهم لابنه: يا بني تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الحديث فاحذر أن تسرع في القول فيما تحب عنه الرجوع، بالفعل ، حتى يعلم الناس أنك على فعل ما لم تقل أقرب منك إلى قول ما لم تفعل".

اجتمع في بعض الزمان ملوك من الصين والهند وفارس والروم، وقالوا: ينبغي أن يتكلم كل واحد منا بكلمة تدون عنه على غابر الدهر. فقال ملك الصين: أنا على رد ما لم أقل اقدر مني على رد ما قلت.

وقال ملك الهند: عجبت لمن يتكلم بالكلمة إن كانت له لم تنفعه، وإن كانت عليه أوهنته.

وقال ملك فارس: إذا تكلمت بالكملة ملكتني، وإذا لم أتكلم بها ملكتها..

وقال ملك الروم: لم أندم قط على ما لم أقل، ولقد ندمت على ما قلت كثيرا.

ومن حسن الأدب في الاستماع أن يعطى المتحدث فرصة ليتم حديثه، وإمهاله في ذلك دون مقاطعة لحديثه، وعدم القفز إلى الجواب قبل إتمام الحديث، فإن ذلك يعني عدم رضى المستمع عن الحديث، وهذا يزرع النفور في القلوب، ويشعر المتحدث بقصوره في الحديث، وعجزه عن التعبير. وقالوا "من حسن الاستماع إمهال المتكلم حتى يقضي حديثه، وقلة التلفت إلى الجواب والإقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم والوعي لما يقول".

ومن سوء أدب الاستماع مجاذبة المتكلم الكلام، وهو يكلم صاحبه ليكون هو المتكلم، أو يتمنى أن يكون صاحبه قد فرغ وأنصت له. فإذا أنصت لم يحسن

الكلام. وحال هذا قد قيل فيه "رحم الله عبداً تكلم فغنم أو سكت فسلم". صدق رسول الله.

أما حين يجهل أدب الحديث والاستماع فهناك البديل منهما، إنه الصمت، وهو أشق فنون التعبير وأبلغها، ولكنْ قليل من يتقنه، وقليل من يفعله.

والصمت للعالم زين وحلية، وهو للجاهل ستر لجهله. أما الخير كل الخير فهو في صمت المؤمن، لأنه يلقن الحكمة بصمته، وإذا نطق كان الدر. قال عليه السلام "إذا رأيتم المؤمن صموتاً وقوراً فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة".

قال أبو ذر: قال لي رسول الله "ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان؟ قلت : بلى يا رسول الله قال: هو الصمت، وحسن الخلق وترك ما لا يعنيك".

والحديث الشريف ينقلني إلى الحكيم لقمان، وقد كان يجلس إلى داود عليه السلام مقتبسا، فوجده يعمل درعاً من حديد، فعجب منه، ولم ير درعاً قبل ذلك، فلم يسأله لقمان عما يعمل ولم يخبره داود حتى تمت الدرع فقاسها داود على نفسه وقال: درع حصينة ليوم قتال. فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله.

ذلك هو الصمت الحكيم، فأين فنانوه وأين أهلوه؟

ورحم الله عبدا تكلم فغنم أو سكت فسلم.   صدق رسول الله.

رجل ورجولة

إن مما يثير الدهشة والعجب أن يختل مقياس من مقاييس الحياة، ويضطرب ميزان من موازينها، كل ذلك وأهلها راضون مغتبطون. وهذا هو العجب كل العجبَ. ولتوضيح هذا الاضطراب أقول: لقد أسهب شرعنا في وصف مقياس الرجل وميزان الرجولة، حتى بات هذا أمراً خطيراً، به تنتظم قوانين الحياة، وتستقيم مبادئها.

وقد أعطى الرجل ضمن ما أعطي القوامة على المرأة، وهذا ما يعرفه الجميع، ولكن كل حسب إدراكه وثقافته، وهذه تعني أول ما تعني "الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم".

والقوامة هنا ليست موضوعي، وإن كان عليّ أن أوضحها لأنطلق بعدها إلى تتمة الحديث.

فالقوامة هي قيام الرجل بأمر المرأة خير قيام، والدفاع عنها في كل الظروف التي تكتنفها، وفي كل موقف من مواقف حياتها.

أما قوله سبحانه "بما فضل الله بعضهم على بعض" فإن هذا التفضيل يكون في الإرث لما على الرجال من المهر والإنفاق.

وللرجال فضيلة في زيادة العقل والتدبير، كما أن لهم زيادة قوة في النفس والطبع.

وهذا وحده كاف ليتولى الرجل الحق القيادة بما تستلزمه من عقل وتدبير وقوة نفس وسلامة طوية وسعة أفق وبعد رؤية.

أما أن يختل في الرجولة أمر من هذه الأمور، فهذا يعني الخطر، والخطورة كامنة في عدم التزام الرجل بالمبادئ المقدرة له.

ومن أهم هذه المبادئ فيما أعتقد – عدم تجاهل الرجل أو تناسيه بحال من الأحوال أنه رجل.

وهذا يفرض عليه عدم غشيان مجالس النساء في صورة تأباها عليه رجولته وكرامته.

فقد أوصى رجل مؤدب ابنه فقال له ضمن ما قال: "وجنبه محاثة النساء" لما في هذا من الخطر بمكان على نفسية الرجل وجسده وعقله ووقته.

وهذا كله قمين بأن يحيد به عن الطريق الجاد الذي تلتزم به الرجولة في معظم مواقف الحياة بل كلها، ويفرض عليه التخلق بأخلاق النساء وترسم مواطن أحاديثهن، وتصرفاتهن بل التشبه بهن فيما يصدر عنهن، مما يتنافى وأخلاق الرجال قال تعالى "أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين".

بل إن الأمر يتجاوز هذا، مع ما يفقده الرجل من الحياء، وهو نراه يتبسط مع النساء في أحاديثهن، ويمضي معهن في متاهاتهن التي يضل معها الجد، ويضحي الرجل ألعوبة هوى وضلال، يفقد معها قدره وقيمته، وهو ينساق في أحاديث فارغة، تهون معها نفسه، وهو ينزل منازل النساء، متناسياً أنه رجل، حتى يضحي كأنه واحد منهن، ولا يرضى عن مجالستهن بديلا.

بل إن مجالس الرجال تصبح عنده ممجوجة ممقوتة لأنه يتباعد بطبعه عن جد الرجال ومعاناتهم، علاوة على ما في هذا من إهدار للوقت، وخيانة للضمير والسمع والبصر والفؤاد قال سبحانه: "إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا".

وعلينا أن نتصور بعد ذلك ما يحدث لهذه الرجولة، بعد أن تكون قد تمرست في ميوعة الأحاديث التي تفتقر في كثير من الأحيان إلى الحياء.

قال عمرو بن عتبة: لما بلغت خمس عشرة سنة قال لي أبي: يا بني قد تقطعت عنك شرائع الصبا فالزم الحياء تكن من أهله. ولا تزايله فتبين منه.

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: وامنعوا النساء من غير الأكفاء فإنكم أهل بيت يتأسى بكم الكريم، ويتشرف بكم اللئيم.

والرجل هو من يعمل على تمسك المرأة بسترها وعفافها، وهو هو من يساعد على تحللها، وانفلاتها من عقالها، بيده أمرها، وقيادها. وكيفما يكن الرجل تكن المرأة.

فهو المسؤول عما يصيبها، يفقدها الحياء إن كان هو فاقداً له، ويوردها موارد الغي إن كان هو واردها.

وملاك الأمر كله الحياء. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: لكل دين خلق، وخلق الإسلام الحياء".

وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله (ص) مر على رجل وهو يعظ أخاه في الحياء. فقال رسول الله (ص): "دعه فالحياء من الإيمان".

ومثل هذه المجالس – فيما اقدر – محرم على الرجل غشيانها، وهي ما نعرفه باسم الاجتماعات النسوية التي يخشى الإنسان مغبتها بما تبدأ به من خيانة البصر، وهذه تجر وراءها البلايا والكوارث.

وقد قال رجل لبعض الحكماء: عظني. قال: لا يراك الله بحيث نهاك، ولا يفقدك من حيث أمرك.

وبعد هذا لنا أن نتصور ما يؤول إليه الحال حين يفقد الرجل والمرأة حياءهما؟ عندما تنعدم الرجولة، وتموت في نفس المرأة العزة والكرامة، ولا يرجى بعدها أمل.

ويبقى هناك في الميزان الرجل الحق والمرأة العفيفة الحيية حيث لا اختلاط يفقدهما كيانهما وإنسانيتهما، ويحطهما إلى درجة البهيمية.

وهذا كله يوزن في ميزان شرف الرجل وضميره وعقله وإيمان قلبه، وكلها مقومات رجولته. إن فقد منها واحداً أضاع تاليه، وإذا فرط بشيء منها انفرط عقده كله، وأضحى جسداً ملؤه خواء وفراغ، عندها نردد قوله سبحانه: "أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين". صدق الله العظيم

الوسواس الخناس

بسم الله الرحمن الرحيم. قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما منكم من أحد إلا وله شيطان". قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: "وأنا. إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمر إلا بخير".

في صور كثيرة يتبدى لكل منا شيطانه، ومن مداخل كثيرة ومسارب خفية يتصدى لنا، فإن قلنا شراً كان الشيطان هو القائل بلساننا، وإذا فعلنا كان هو الدافع إلى ذلك الفعل. وإذا ما انساق أحدنا وراء شهواته وغرائزه كان الشيطان هو المزين له هذا. وهكذا... كل شر ننوى أن نصنعه إن هو إلا من فعل الشيطان.

ويوسوس الشيطان لبعضنا أموراً غريبة لا تستقيم مع العقل والمنطق. وهي وساوس تنتابنا إذا ما أغفلنا ذكر الله سبحانه.

قال قيس بن الحجاج: قال لي شيطاني" دخلت فيك وأنا مثل الجزور، وأنا الآن مثل العصفور. قلت: ولم ذاك؟ قال تذيبني بذكر الله تعالى.

والشيطان لا يكتفي بالمسارب الخفية، ينفذ منها إلينا، ولكنه يجتاز الطرق الواضحة التي يدفع صاحبها من خلالها إلى إطاعة ما يأمره به.

روى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "كان راهب في بني إسرائيل. فعمد الشيطان إلى جارية فخنقها، وألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب، فأتوا بها إليه فأبى أن يقبلها، فلم يزالوا به حتى قبلها. فلما كانت عنده ليعالجها أتاه الشيطان فزين له مقاربتها، ولم يزل به حتى واقعها فحملت منه، فوسوس إليه وقال: الآن تفتضح، يأتيك أهلها فاقتلها، فإن سألوك فقل ماتت، فقتلها ودفنها، فأتى الشيطان أهلها فوسوس إليهم وألقى في قلوبهم أنه واقعها حتى حملت منه ثم قتلها ودفنها. فأتاه أهلها فسألوه عنها فقال ماتت. فأخذوه ليقتلوه بها، فأتاه الشيطان فقال: أنا الذي

خنقها، وأنا الذي ألقيت في قلوب أهلها، فأطعني تنج وأخلصك منهم. قال: بماذا؟ قال: اسجد لي سجدتين، فسجد له سجدتين. "إذ قال للإنسان اكفر، فلما كفر قال إني بريء منك" (الحشر:١٦).

وأركز هنا على تزيين الشيطان للراهب في قبول الجارية المعالجة، وهو أمر هين، وربما يظن صاحبه انه خير، فيحسن ذلك في قلبه بخفيّ الهوى، فيقدم عليه كالراغب في الخير، فيخرج الأمر بعد ذلك عن اختياره، ويجره البعض إلى البعض، بحيث لا يجد محيصا. قال رسول الله (ص): "من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه".

هذه الصورة تتكرر في اكثر من ثوب في حياتنا، ولكن يبقى الجوهر كما هو، الخير في الظاهر، أما الباطن فهو الهوى الضلال.

ففي كل يوم نسمع ونشاهد العجب من هذه الصور التي تنتهي دائما بفاجعة أو كارثة، لأن الشيطان يزين شرها في البداية خيرا، فما إن يخرج الأمر عن اختيار الإنسان حتى يتخلى عنه الشيطان تاركاً إياه في الحسرة والندم على ما جنته يداه.

وأدل هنا على واحدة من قصص الشيطان، حين يعمل في الصدور التي نسيت ذكر الله فأنساها الله أنفسها.

انعقدت الصداقة بين أسرتين من الأسر، زين لها الشيطان الاختلاط بين جميع أفرادها، حتى بات فيها الآمر الناهي.

فقد علق الزوج زوجة صديقه علوقاً لم يجعل لهما فيه الشيطان فكاكا، حي انتهى الأمر بزواج الاثنين، مدمراً بيتين ومشرداً أطفالهما.

ولم يكتف الشيطان بذلك، بل إنه أحال نفس الزوجة المغدورة إلى بركان ثأر وانتقام لكرامتها مما حملها على أن تلقي بنفسها بين أيدي الزوج الآخر.. وهكذا مخادعان ومخادعتان، لعب بهما الشيطان فتشرد الأطفال.

وأقف هنا فأقول، كما أنّ الشهوات ممتزجة بلحم ابن آدم فسلطة الشيطان أيضاً سارية في لحمه ودمه، ومحيطة بالقلب من جوانبه، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع". وذلك لان الجوع يكسر الشهوة ومجرى الشيطان الشهوات.

وفي تصوير اكتناف الشهوات للقلب قال تعالى: "لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم". (الأعراف:١٧).

أما سلطان الشيطان على ابن آدم فقد بينته الآية الكريمة: "إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير" (فاطر ٦).

وهنا لا بد من إبراز أمر من خلال ما رويت. فإن كثيراً من الناس ينخدعون بالمظاهر التي يحياها سواهم، وينبهرون بالقشور التي تحيطهم. وهو من هنا يعتقدون أن ما عند الناس أفضل مما عندهم، وان ما في أيدي الناس يفضل ما في أيديهم.

ويصل بهم الجهل حدا يجعلهم يعتقدون أن من يغترون بهم برآء من العيوب والمساوئ، لأنهم لا يرون فيهم إلا ظاهرهم.

ولكن ما نعرفه عن الناس انهم يحاولون التظاهر بأبهى حالاتهم أمام غيرهم، وكلما ازددنا اقتراباًمنهم ازددنا بجوهرهم معرفة فإن "المرء بأصغريه قلبه ولسانه"، كما يقول رسول الله (ص)، ويقول عليه السلام: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأشكالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم".

ولكن أنى للشيطان أن يترك عباد الله، ونحن نرى وساوسه تعمل في قلوب بعض النساء اللواتي يعتقدن أن مظاهر بعض الرجال انعكاس لجوهرهم، فهم من هنا أفضل من يعرفن، وكذلك بعض الرجال الذين ينبهرون بالقشور والأصباغ التي تصبغ بعض النساء فيظنون فيهن أفضل النساء، فيتحرك بذلك الوسواس في

نفوسهم، وينفذ إليهم الشيطان من خلالهن، قال رسول الله (ص): "ما أخاف على أمتي فتنة أخوف عليها من النساء والخمر".

ويبقى في ذكر الله الخلاص من الشيطان، حتى تسد عليه الأبواب كلها. وقد قال حكيم من الحكماء: الشيطان يأتي ابن آدم من قبل المعاصي، فإن امتنع أتاه من وجه النصيحة حتى يلقيه في بدعة، فإن أبى أمره بالتحرج والشدة حتى يحرم ما ليس بحرام، فإن أبى شككه في وضوئه وصلاته حتى يخرجه عن العلم، فإن أبى خفف عليه أعمال البر حتى يراه الناس صابراً عفيفاً فتميل قلوبهم إليه فيعجب بنفسه وبه يهلكه، وعند ذلك يشتد إلحاحه فإنها آخر درجة ويعلم أنه لو جاوزها أفلت منه إلى الجنة. قال تعالى: "فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم".

صدق الله العظيم والحمد لله أولا وآخراً.

كلنا فقراء إلى الله

قال تعالى "إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما".

كثيرا ما تدور الأحاديث والتساؤلات حول حقيقة الخلق والخليقة واختلاف الناس وتفاوتهم، وبخاصة التفاوت الطبقيّ، أو الماديّ. فثم غنيّ وثم فقير.

وحين يصل المرء إلى هذه النقطة يقف عندها، وقفة مستريحة، تتشابك فيها الآراء حول تفاوت البشر الطبقيّ، وتكثر الأسئلة، لم وجد الغني غنياً والفقير فقيراً؟ ما الحكمة في هذا كله؟ وهل كون هذا أو ذاك فقيراً يشفع له عند الله بسبب ما يعانونه في الحياة الدنيا؟ وهكذا. الأسئلة كثيرة..وحولها نقول..

التفاوت في الإسلام نهج طبيعيّ لا بد منه، ومرد هذا أن الناس متفاوتون فيما هو أهم من المال. وتفاوتهم في الصحة والقوة العقلية والذكاء، وتفاوتهم في مقدار

توفيقهم في الزواج أو الجوار أو الصحبة، وتفاوتهم في مدى صلاح أولادهم ونجاحهم، وتفاوتهم في الشكل واللون والصوت والسلوك..الخ.

مجتمع إسلاميّ متكامل في جميع مناحيه، متكافل بجميع أفراده. وقد قال فيه رسول الله (ص): "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى".

والإسلام قد أقر التفاوت في الغنى بمقدار الجهد الذي يبذله الشخص، وبمقدار ما يصيبه من حظ وتقدير. وهو يحصله بطريقين مشروعين هما العمل والميراث. والعمل الشريف من أهم الأمور التي اهتم الإسلام بها، وأكدته آيات كثيرة وأحاديث قال سبحانه: "فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه" (الملك ١٥).

وبلغ هذا الاهتمام حداً كبيراً إلى درجة ساوى فيها بين العامل الجاد وبين المكافح في سبيل الله "وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله". (المزمل ٢٠). وقال الرسول (ص) "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا".

والطريق المشروع الثاني للغنى هي الميراث، فالمال بعض ما يرثه الإنسان عن آبائه، ولكنه يرث عنهم ما هو أعظم من المال، فهو يرث الشكل واللون، ويرث أحياناً الصحة والمرض، ويرث كثيراً مما فيهم.

فكما أن وجود الغنى أمر طبيعيّ في الحياة، كذلك الفقر، ووجودهما موافق للفطرة الإنسانية، والاسلام يحترم هذه الغرائز ويخاطبها وينميها، وفي تقريرها مجال للتنافس الذي يؤدي إلى خير المجموع "نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات" (الزخرف ٣٢).

وهذه القسمة بينتها الآيات الكريمة فقال سبحانه "الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقــدر" (الرعد ٢٦). وهذا يدفعنا إلى تفسير نعتقده وهو أن المجتمع الإنسانيّ

يشبه في بعضه أصابع اليد المتفاوتة، وهذا التفاوت هو بحد ذاته سر مهارتها فيما تقوم به.

ومثلها الناس غنيهم وفقيرهم، والفقير هو دافع الغني إلى الرحمة والشفقة والعطف والتعاطف والتكافل والتكامل في مجتمع إسلاميّ يطبق الشرع كما شاءه الله سبحانه، وكما طبقه رسول الله (ص) وصحابته الراشدون رضوان الله عليهم.

ومال الغني هو مال الله وضعه في ذمته حتى يحقق من خلاله سعادة المجموع. قال تعالى "وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها، كذلك وأورثناها قوما آخرين". وقال (ص): "إن لله عند قوم نعماً أقرها عندهم ما كانوا في حوائج الناس ما لم يملوهم، فإن ملوهم نقلها إلى غيرهم".

وهذا يؤكد ما نراه في حياتنا وما قرأناه ونقرؤه، وما سمعناه ونسمعه، وهو أن الغنى والفقر أمران عارضان لا يدومان فلا الغني يبقى غنياً، ولا الفقير يبقى فقيرا، حتى تمضي حكمة الله وسنته في خلقه.

كما يشير إلى نقطة نلمح حكمتها، وهو أن غنى الغني ليس ملكاً له، إذ إن عليه أن ينفقه فيما يعود بالسعادة والإسعاد والخير على المجتمع، لينتفع به الزارع والعامل والصانع والتاجر وغيرهم وكلٌ يعمل برضى الله وتقواه العمل الذي يكفيه السؤال، ويحفظ له ماء وجهه وكرامته التي هي سر حياة الإنسان الكريم.

وبهذا يضمن للمجتمع التعاون بين جميع أفراده، كل في ميدانه وكل يكمل الآخر بالشرف، كلهم في النهاية يتعاونون على تشغيل مال الله الذي وضعه أمانات في أيدي أصحابها.

من هنا كان ذلك الغني الذي يكنز مال الله ويبخل به مستحقاً غضب الله وعذابه "والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم

يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون" (التوبة ٣٤، ٣٥).

وكما أن على الغني ألا يكنز مال الله فإن عليه أيضاً ألا يتهاون في حقه، ويسرف فيه، فإن هذا يحول دون وضعه وإنفاقه في وجهه السليم "ولا تسرفوا إن الله لا يحب المسرفين" بل إن المسرفين هم إخوان الشياطين "ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين، وكان الشيطان لربه كفورا".

أما الخير لصاحب المال والمجتمع فهو الاعتدال في الإنفاق، وهذا يحقق العدالة الاجتماعية المتكاملة "والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما" (الفرقان ٦٧).

فمال الله هذا لا يستخدم إلا في الخير وتقوى الله ومرضاته، بعيداً عن مزالق الشيطان كالرشوة والاحتكار وسواهما، وهذا يعني أنّ المال ينفق في غير الصالح العام، ولكنه ينحصر في فئة دون أخرى "ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون" (البقرة ١٨٨).

وقال رسول الهدى (ص): "الراشي والمرتشي في النار".

وكما لا يستخدم مال الله في الرشوة فإنه لا يستخدم في الاحتكار، فإن هذا يؤدي إلى خلق الهوة بين الناس، وتنعدم الرحمة والشفقة والعدل، إذ إن ذلك المحتكر ينسيه الشيطان مصلحة الناس ويتلاشون جميعاً أمام نفسه ومصلحته وجشعه. قال (ص): "من احتكر طعاماً أربعين يوماً يريد به الغلاء فقد برئ من الله وبرئ الله منه". وقال (ص) في ذلك الجشع المحتكر "بئس العبد المحتكر إن ارخص الله الأسعار، حزن، وان أغلاها فرح".

ذلك مال الله يؤتيه من يشاء لخير الجماعة، فإن أحسن صاحبه استخدامه وتشغيله بارك الله له فيه، وان لم يكن كذلك جاز فيه الحجر على ذلك المال الذي لم يحسن القيام عليه، وتشغيله.

وهذا التشغيل هو في المقام الأول لصالح الفقير الذي كان فقره مفجراً لشتى العواطف النبيلة والمشاعر الكريمة في نفس الغني. وهذه توثق العلائق بين أفراد المجتمع، فقيرهم وغنيهم، وكلهم يتعاونون ويتكاملون في إطار الرحمة والشفقة والإيثار والمودة والرفق.

والوفاء بحاجة الفقير عمل تلتزم به الدولة ويلتزم به الغني، وهو حق لازم له وليس صدقة أو منحة قال سبحانه "وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم" (الذاريات ١٩).

وهذا الحق الذي تلتزم به الدولة لا بد من أن يتحقق بتعرف أحوال الرعية والبحث عن الفقير حتى تؤدي له حقه بالحماس ذاته الذي تؤخذ به الضرائب.

وحق الفقير في مال الغني الذي يتضمن المأكل والملبس والمسكن قسمان: الحق الثابت الدائم بلا انقطاع وهو الذي يدفعه الغني للفقير إما مباشرة أو عن طريق الدولة توزعها كيف شاءت، وهذا ما يعرف بالزكاة. والحق غير المحدد الذي يتبرع به الأغنياء والقادرون في الأوقات العصيبة.

وفي الحق الأول قال سبحانه "قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون".

وقال تعالى في الحق الثاني "ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام

الصلاة وآتى الزكاة". وقال (ص) "إن الله فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يسع فقراءهم". وقال (ص) "ما آمن بي رجل بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم".

هذا هو المجتمع المتكامل المتراحم في ظل شريعة الله الإسلام. يقول في هذا (ول ديورانت) صاحب موسوعة "قصة الحضارة": "ولسنا نجد في التاريخ كله مصلحاً فرض على الأغنياء من الضرائب ما فرضه عليه محمد لإعانة الفقراء.

وبالإضافة إلى الزكاة كان محمد يحض كل موص بأن يخصص من ماله جزءا للفقراء". وهذا الجزء الذي يخصص للفقراء ليس لإطعامه فقط ولكن لإيجاد عمل له به، وذلك بإعطائه مبلغاً يبدأ به عملا يعيش منه أبداً. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحث هؤلاء على شراء غنم بنصيبهم لتكون لهم بذور ثروة.

وفي هذا المجتمع المتكافل راعى الإسلام مشاعر الفقير، حتى لا تخدش كرامته ويتألم قلبه بسبب التفاوت في الملبس، فحرّم لبس الحرير واستعمال الذهب والفضة والمبالغة في تجميل المساكن ووسائل الركوب الخاصة فوصف الرسول (ص) المساكن المجملة بأنها بيوت الشياطين، ووسائل الركوب بإبل الشياطين فقال "تكون إبل للشياطين وبيوت للشياطين، فأما إبل الشياطين فقد رأيتها، يخرج أحدكم بنجيبات معه ويمر بأخيه قد انقطع فلا تحمله. أما بيوت الشياطين فلا أراها إلا هذه الأقفاص التي تستر الناس بالديباج". صدق رسول الله

السكينة النفسية

قال تعالى: "هو الذي انزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم".

كتب أحد الأطباء اللامعين في أمريكا: وضعت مرة وأنا شاب جدولاً لطيبات الحياة المعترف بها، فتكتبت هذا البيان بالرغائب الدنيوية: الصحة، الحب والموهبة والقوة والثراء والشهرة. ثم تقدمت بها في زهو إلى شيخ حكيم.

فقال صديقي الشيخ: جدول رائع وهو موضوع على ترتيب لا بأس به، ولكن يبدو لي أنك أغفلت العنصر المهم الذي يصبح جدولك بدونه عبئاً لا يطاق، وضرب بالقلم على الجدول كله وكتب كلمتين " سكينة النفس" وقال هذه هي الهبة يدخرها الله لأصفيائه، وإنه ليعطي الكثيرين الذكاء والصحة والمال، وليست الشهرة بنادرة، أما سكينة القلب فإنه يمنحها بقدر.

ويمضي الطبيب فيقول" وقد وجدت من الصعب تقبل هذا، ولكن الآن بعد نصف قرن من التجربة الخاصة والملاحظة الدقيقة أدركت أن سكينة النفس هي الغاية المثلى للحياة الرشيدة، وأنا اعرف أن جملة المزايا الأخرى ليس من الضروري أن تعطي المرء السكينة التي تزهر بغير المال، بل بغير مدد من الصحة. هي أي السكينة تحول الكوخ إلى قصر رحب، أما الحرمان منها فإنه يحيل القصر قفصاً وسجنا.

فسكينة النفس لا تحققها ماديات الحياة، ولكن يحققها شيء واحد الإيمان المطلق الصادق الذي لا تشوبه لمحة شك.

وهي النفحة الإلهية يلقيها الله في قلوب المؤمنين لتحصنهم وتحميهم وتثبتهم إذا هلع الناس، وترضيهم إذا سخط الناس وتصبرهم إذا جزع الناس.

والإيمان الذي يعطي السكينة لا يتحقق إلا بالاعتقاد الكامل الجازم بالله وقدرته وإبداعه وتدبيره وتقديره، وإن هذا الخلق والإبداع والتدبير والتقدير إن هو إلا تدبير حق وخير وعدل "وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى" (الأحقاف ٣). وقوله سبحانه "خلق الله السموات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين" (العنكبوت ٤٤).

والإيمان هو أن نكون متيقنين حب الله سبحانه في قلوبنا وصدورنا، نتفيأ ظله، ونرتجي عفوه ورحمته وتوفيقه، وهو معنا، وهو أرحم بنا من والدينا، يستجيب لنا

حين ندعوه "ادعوني أستجب لكم"، ويغفر لنا حين نسترحمه بقلوب تغسلها دموع التوبة "قل يا عباديَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم".

هذا هو الإيمان في أبسط معانيه، يعطينا السكينة التي نرجوها ونسعى إليها، فهي روح من الله ونور يسكن إليه الخائف، ويطمئن عنده القلق، ويتسلى به المحزون ويستروح به المتعب، ويقوى به الضعيف ويهتدي به الحيران.

فمن منا لم تؤلمه الحياة بقسوتها" ومن منا لم يعلق به نكد الأيام؟ ولكن كم هم الذين لم ييئسوا من روح الله "ولا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون".

وعند هذه النقطة من امتحان الحياة يكون الإيمان.. فإما الإيمان المطلق برحمة الله بلا حدود، وإما اليأس وهذا هو كفر اليائسين.

وبمقدار ذلك الإيمان تكون السكينة التي تعمر قلوب المؤمنين أليست هذه السكينة التي عمرت قلب رسول الله (ص) يوم الهجرة، فلم يعره همّ ولا حزن، ولم يستبد به خوف ولا وجل، ولم يخالج صدره شك ولا قلق "فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا".

فقد غلبت على صاحبه أبي بكر الصديق مشاعر الحزن والإشفاق لا على نفسه، بل على الرسول وعلى رسالته حتى قال والأعداء محدقون بالغار: يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا. فيقول الرسول مثبتاً فؤاده: "يا أبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما؟".

وبم تفسر تلك السكينة التي استحوذت على قلب يونس عليه السلام وهو في بطن الحوت، في ظلمات داخل ظلمات؟ أليس الإيمان المطلق الذي يعطي صاحبه اليقين في أن الله أقرب إلينا من حبل الوريد، وأنه أرحم علينا من البشر أجمعين، حين نستعطفه ونستغفره ونتوب إليه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا بقلوب باكية

وعيون دامعة دموع التوبة "وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا اله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين". (الأنبياء ٨٧،٨٨).

أما الأسباب التي تجلب السكينة إلى قلب المؤمن فهي اهتداؤه إلى فطرته التي فطر الناس عليها. وهذه الفطرة لا يملؤها علم ولا ثقافة ولا فلسفة ولا جاه ولا سلطان. وهذه الفطرة تواقة أبداً إلى الري والشبع حتى تجد الله وتؤمن به، وتتوجه إليه، وتهتدي بهديه.

عندها فقط يستريح من عناء، ويرتوي من ظمأ، ويأمن من خوف، وتحس النفس بالاستقرار بعد الضياع. والطمأنينة بعد القلق.

وبدون هذا يبقى الإنسان تائهاً محيراً مضيعا، تمضي حياته بغير هدف، ويدور في فراغ يسلمه إلى فراغ، يبحث عن نفسه فلا يجدها يفتش عن ذاته فلا يعثر عليها، "كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم" (الحشر ١٩).

فأيامه تمضي بلا محور يضبطها، بلا رابط يشد عراها إلى أعماقه وإلى قلبه، حيث الفراغ والخواء، قال ابن القيم الجوزية: في القلب شعث لا يلمه إلاّ الإقبال على الله. وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله. وفيه حزن لا يذهبه إلاّ السرور بمعرفته وصدق معاملته. وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه.

وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له. ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدا.

فالقلب جانب من الفطرة الإنسانية، أما الجانب الثاني فهو العقل. والفطرة ليست تفكيراً خالصاً ولا شعوراً محضا. وقد جاء الدين يخاطب التفكير والشعور. واعتماد

العقل وحده لا يصل بالإنسان إلى عقيدة سليمة راسخة، إذ إنه مهما أوتي من الذكاء والقدرة على التجربة والقياس والاستنتاج فهو محدود بحدود الطاقة البشرية، مقيد بقيود المكان والزمان والوراثة والبيئة.

لذا فهو لا غنى له أبداً عن سند يسدده إذا اخطأ، أو يهديه إذا ضل، وهذا السند هو الوحي. وفي هذا وحده الراحة من عناء البحث والتساؤل والجدال فيما يبدد الطاقة دون الظفر بما يغني.

وبهذا إعفاء من تجشم رحلات شاقة، والسير في دروب معتمة ملتوية لا يعرف إلام تنتهي. وهو يقدم للإنسان ما ينبغي أن يعلمه وما يستطيعه من مبدأ الوجود ومنتهاه وعلة أسراره تقديماً سائغاً خاصاً لتريحه من جدل المجادلين وتفلسف المتفلسفين، وتخرصات المتكلفين.

ولولا هذا كله لسار الإنسان في صحراء واسعة ليس فيها غير السراب، وليقضي حياته في ظلمات متراكمة "كظلمات في بحر لجيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور" (النور ٤٠).

قال الفخر الرازي في "كتاب أقسام اللذات" بعد أن وقف على أفكار المتقدمين والمتأخرين وطاف بدائرة المعارف الفلسفية والكلامية لعصره: لقد تأملت الكتب الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تروي غليلاً ولا تشفي عليلا، ورأيت أقرب الطرق طريق القرآن.

وهذا يؤكد للمتفلسفين والجاحدين والمنكرين أن أهدى السبل وأقربها وآمنها للظفر بالسكينة النفسية والقلبية والعقلية هو الوحي الذي يعصمه من الشك المدمر، والقلق المروع "فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم". "فتوكل على الله إنك على الحق المبين".

والحق المبين لا يظفر به إلا المؤمن بوحي الله وهداه. وهو السبيل إلى الوصول إلى اليقين في قضايا الخلق والخليقة، وبغيره لن يكون يقين، وبغير اليقين لن تكون سكينة، وبغير السكينة لن تكون سعادة. والسعادة في الإيمان.

وبالإيمان حل المؤمن ألغاز الوجود الكبرى، فزالت علامات الاستفهام، وانحلت عقدة الشك وعرف الطريق القويم فسلكها غير هياب ولا متردد ولا قلق. إنه طريق الله، والرجوع إلى الله، والاستسلام الكامل لحكم الله "وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم". "إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون". (النور ٥١).

وكل ما تقدم أوجزه في تعبير يشيع استخدامه بيننا وهو يدل على عفوية الإيمان في القلوب "كن مع الله ولا تبال". قال رسول الله (ص) في حديثه القدسي "أنا عند ظن عبدي وأنا معه إذا ذكرني". وقال سبحانه" ومن يتوكل على الله فهو حسبه". وفي ذلك يرتاح قلب المؤمن، وتسكن جوارحه، وتطمئن نفسه، وهو متيقن أنّ الله معه بهدايته وتوفيقه، مما يهون عليه الأيام ويذلل الصعاب، وهو يردد قوله سبحانه "إن معي ربي سيهدين" (الشعراء ٦٢). صدق الله العظيم

أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك

لقد كثرت أحاديثي عن الأم وفضل الأم وقداسة الأم، وعن الأب وكده وكفاحه. هذان المخلوقان اللذان جعل الله سبحانه رضاه في رضائهما، وقرن شكره بشكرهما.

وما يحملني على ذلك ليس بر الأبناء البررة بآبائهم وأمهاتهم، ولكنه عقوق من عق، وهو ينتظر بدوره أن يعقه أبناؤه كما عق هو أمه وأباه.

ولست ادري بم يفسر كل منا بره أو عقوقه. ولكن في البر والإحسان كل خير ورحمة بهذين المخلوقين اللذين اكتملت بهما حياة ابنهما، بما نفحاه من حياة بكدهما وشقائهما وعرقهما وسهر لياليهما. وهما مع هذا كله يستعذبان الضعف الذي تخلف عن منح أبنائهم القوة والشباب والكفاح.

والبر والإحسان بالوالدين يكون بتجنيبهما كل قلق ينتج عن شعورهما بالوحدة بعد أن كبر أبناؤهما، واستقلا في الحياة بعيداً عن قوة الوالدين بعد إذ لم تعد لهما تلك القوة الفعالة الجبارة.

والبر والإحسان ألا تضعهما في مكان أقل حسنا مما أنت فيه مما لا يليق بكرامة الإنسان.

وعند هذه النقطة أتساءل ، كيف هو شعور أولئك الذين استحوذ الشيطان عليهم فألقوا أمهاتهم وآباءهم وراء ظهورهم بعد أن امتصوا كل عروق الحياة منهم.

فقد هيأ لهم شيطانهم أن البقاء للأقوى على حساب آبائهم، فتحجرت قلوبهم وعميت أفئدتهم وانساقوا وراء وساوس الشيطان، فسكنوا هم الدور التي صنعتها لهم قوة آبائهم ومكابدتهم في الحياة وأسكنوا هؤلاء الآباء دهاليز الحياة، لأنهم – ويا لعارهم – باتوا يأنفون ممن صنعوهم وأعطوهم كرامة الحياة بما بذلوه وعانوه.

وفي الحياة المعيشة كثير من صور الألم الذي يعانيه آباء وأمهات.

فهذا مثلا ابن كتب له أبوه في حياته الدار التي قضى العمر في بنائها، وما إن تم ذلك للابن حتى بات الشيطان حليفه، وقد زين له طرد الأب من الدار التي لم تعد ملكاً له كما يدعي عقوق الابن، وانتهى الحال بذلك الأب إلى إحدى زوايا الحياة المظلمة.

وفي هذا ألف سؤال وسؤال، وكلها تحمل دموع الألم، وكلها تنبئ بغضب الله الجبار لأجل آلام أب أو دمعة أم.

وارى أن أسوق هنا كلمة كتبها أحد الحكماء إذ يقول "لا يغترن أحد بطول عمره ورقة عظمه ووهن قوته أن يرى أكرومته ولا يخرجه ذلك إلى إخراج ماله من يديه وتحويله إلى ملك غيره فلعله أن يكون معمراً وهو لا يدي وممدوداً له في السنِّ وهو لا يشعر. ولعله أن يرزق الولد على اليأس أو يحدث عليه بعض مخبآت الدهور مما لا يخطر على البال، ولا تدركه العقول، فيسترده ممن لا يرده، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه، أضعف ما كان عن الطلب، وأقبح ما يكون عن الكسب".

صورة أخرى تقول إن فلانا قد طرد أمه من بيته، لتسكن بعيداً عنه، وحيدة بلا حول. وتعليلهم في هذا هو أن الابن لم يعد قادراً على التفاهم مع أمه.

عجباً! تفاهم ينعدم بين الابن وأمه بعد أن اصبح هو أبا، وهذه الأبوة تعني أن يتدعم التفاهم ويتأصل بعد أن اصبح يحس بعواطفها ويدرك كنهها في أبنائه.

وكلنا يعلم أنه ما من أمر يمكن أن يبعد الأبناء عن الوالدين حساً ومعنىً وروحاً في الحياة، والعقل والمنطق يأبيان إلا أن تزداد الوثائق والوشائج قوة ومتانة، وإلا كان الخلل في معنى الحياة ومقاييسها. حيث أتم الوالدان رسالتهما بذلاً وتضحية وكداً ومعاناة، والأمر البدهيّ في هذا أن يحفظ الأبناء ويبروا ويكملوا مع الوالدين رسالة الحياة باذلين ما بذل الآباء لتكتمل سنتها فينا آباء وأمهات، ثم بنين وبنات، ثم أحفاداً.

ويشاء سوء طالع بعضهم أن يكون لهم شأن آخر مع الرسالة المقدسة، حيث يتجاهلونها، مغفلين أقدس حقوق الله والوالدين، وهي حقوق تؤدى أو يجب أن تؤدى لهما حتى مع شرك أحدهما.

عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: قدمت علي أمي وهي مشركة، فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت" قدمت عليّ أمي وهي راغبة أفأصل أمي، قال: "نعم صلي أمك".

فهل هناك ما هو أكثر من الشرك. فليعلق على هذا من يشاء.

وبر الوالدين أوسع مما يعتقده المعتقدون، فإن الكلمة الخشنة ليست من البر والإحسان في شيء.

وقد تتساءلون عن ماهية تلك الخشونة، وأعفيكم من الرد بقوله سبحانه: "فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما".

فحين يهرم الوالدن، بل الإنسان بعامة فإن سنة الله لا بد من أن تمضي حتى نهايتها "ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا" (الحج ٢٢).

وهذا يعني الطفولة الثانية التي ينقلب إليها الإنسان مما يدفعه إلى التصرف بما يثير الضجر أحياناً، وهذا يعبر عنه بأساليب شتى أدناها لفظة أف، وهي مقياسنا براً أو عقوقا.

والمؤمن بربه وبحق والديه لا يترك لهذه الأف سبيلاً إلى قلبه قبل لسانه مع كل ما يصدر عن والديه. فإرضاؤه سبحانه مرتبط بإرضاء الوالدين، وسخط الرب في سخط الوالد.

ومن بر الوالدين والإحسان إليهما ألا يثار الغبار وهما جالسان.. إلى هذا الحد من الحدب عليهما والرفق بهما دعا الإسلام وقد بات الوالدان أحوج ما يكونان إلى الرفق والرحمة من أبنائهما الذين باتوا قوة آبائهم وذخيرتهم وسندهم. ولا تطلب الذخيرة ولا يرجى السند إلا عند الضعف، فهل يبخل بها الأقوياء؟ ومع هذا فإننا كثيراً ما نسمع شكوى أم ونرى حسرة أب بلغ عقوق ابنهما إلى حد ضربهما. عن رسول الله (ص) "رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف قيل من يا رسول الله؟ قال

"من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة". ومعنى هذا أن برهما عند كبرهما وضعفهما بالخدمة أو النفقة أو غير ذلك سبب لدخول الجنة، فمن قصر في ذلك فاته دخول الجنة وأرغم الله أنفه.

وبر الوالدين لا يكتمل إلا بإكرام حبهما، ومن لهم أدنى علاقة بهما، قال رسول الله (ص) "إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه" مسلم ١٦: ١٠٨.

أخرج أبو داود عن عمرو بن السائب أنه بلغه أن رسول الله (ص) كان جالسا. فأقبل أبوه من الرضاعة، فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه. ثم أقبلت أمه من الرضاعة فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه. ثم أقبل إليه أخوه من الرضاعة فقام رسول الله فأجلسه بين يديه".

وبعد، فلو قدر الأبناء حق رسالة الآباء، ولو وضع الابن نفسه مكان أبيه، ووقفت البنت في موضع أمها لأدركوا جميعاً مدى ما يظلمون أمهم وأباهم، ولعلموا ما يستشعره الآباء من ألم بإنكار الأبناء فضلهم ومكابدتهم وعناءهم.

ولكن يبقى الآباء آباء، وتبقى الأمهات أمهات، أبداً يغفرون ودوما يصفحون، ويمضون في العطاء والسخاء حتى مع ضيق قدرتهم على العطاء والسخاء.

ويسيرهم في عطائهم عظيم إذا ما قيس بالقلب الرحيم الذي يحب ويعطي وبالنفس الكريمة التي تجود وتسخو.

فقلوب الآباء مجبولة أبداً بالمغفرة والرحمة، ونفوسهم مهيأة دائما للبذل والفداء حين يلم بالأبناء أمر.

فأدنى درجات التقدير لأولئك الآباء البر. والبر الصلة واللطف وحسن الصحبة والعشرة والطاعة، وهذه الأمور هي مجامع حسن الخلق . قال رسول الله (ص) "البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس". وقال عليه السلام "بروا آباءكم يبركم أبناؤكم". صدق رسول الله

الإسلام دين القوة

قال تعالى "لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز".

فالإسلام دين القوة ودين العزة والإقدام، دين لم تقرره السماء ختاماً للأديان إلا لأنه مساير تطور العصور التي تعتمد القوة أساساً لها، وتدرج المجتمعات والأمم لا تنال مكانها تحت الشمس إلا بالقوة والجرأة والشجاعة التي دانت أمم الأرض بها للعرب فقال فيهم سبحانه وتعالى "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر".

ومما لا شك فيه أن عرب اليوم غير عرب الأمس، والأمة العربية الحاضرة غير تلك الأمة التي لاقت وجه ربها وهي أنضر ما تكون وجوهاً وقلوباً "من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا".

لقد كان رسول الله (ص) قدوة للعالم ولأمة العرب تلك، فقد اقتدوا به زعيماً وقائدا، وساروا على نهجه حاكماً ومشرعا، وعملوا بسنته الشريفة قلباً وروحاً.

فتلك الأمة هي أمة الله وأمة رسوله عملت بقوله وفعله حيث قال وفعل "والذي نفسي بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه.. ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل".

وقال (ص) القائد القدوة حين يقاتل قتالاً لا يخشى معه الأخطار، ويسيل معه دمه الزكي الطاهر فداء دينه وإعلاء كلمة ربه ويردد "هل أنت إلا إصبع دميت، وفي سبيل الله ما لقيت".

وهو عليه السلام في المقدمة حين يشتد القتال وتحمر الحدق، وكان حين يردد آية القوة والاستعداد "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة" يقول "ألا إن القوة الرمي، ارموا بني إسماعيل، فان أباكم كان راميا، ومن ترك الرمي بعدما علمه رغبة عنه، فإنها نعمة تركها".

الرسول الزعيم القائد القدوة لامة كانت قدوة، فقد كان الرعيل الأول من المسلمين يلبون مؤذن الجهاد، وداعي النفرة والتعبئة، ويذهبون إلى رسول الله (ص) ليحملهم إلى مواقع القتال، وكانت وسائل النقل لا تسعف على حمل كل هؤلاء الذين اندفعوا حباً في القتال والاستشهاد رفعاً لراية الحق، ولكن النبي (ص) يعتذر إليهم فتفيض دموعهم حزناً إلا يدركوا الشهادة، فقال سبحانه "ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون" (التوبة ٩٢).

فأين أمتنا الحاضرة من تلك الأمة؟ أين الخلف من السلف؟ بل أين حاضرنا من ماضينا؟

لقد انبت هذا الحاضر عن الماضي، وبات المستقبل تائهاً مضيعا، وتشتتت أمة العرب مزقاً في حاضر نسي الماضي وضاع منه المستقبل.

فكيف تمضي هذه الأمة وهي تفقد مقوماً من أعظم مقوماتها، وتضيع أعز مكوناتها، فقدت الشجاعة في القتال والجرأة في الحق، واستكانت إلى حياتها الدنيا تنهل منها ما شاء لها ذلك فقال فيهم سبحانه "أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون" (البقرة ٨٦).

واشترت هذه الأمة بعهد الله ثمناً قليلاً فخسرت الدنيا والآخرة فكانوا كما قال سبحانه "إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في

الآخرة ولا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم" (آل عمران ٧٧).

فالإسلام ربى الشجاعة في نفوس أهله، بمعناها الشامل الواسع، وأول هذه الشجاعة الحرية التي تعلو بها راية الله سبحانه، وتحمى بها الأوطان، وتوطد بها أركان الأمن ودعائمها. قال تعالى "ولا تهنوا في ابتغاء القوم، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون، وترجون من الله ما لا يرجون، وكان الله عليما حكيما". (١٠٤ النساء).

ولا بد لهذه الشجاعة من قوة مادية تؤديها، وهذه القوة هي الاستعداد بجميع وسائل القتال "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم".

وقد صرح القرآن الكريم بهذه القوة التي ترهب الأعداء، وهي الحديد والسلاح فقال سبحانه "لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز" (الحديد ٢٥).

فمثل هذه الشجاعة يباركها الله سبحانه، فقد خرّج أمة لا تهاب الخطوب، وتستعذب الموت في سبيل الحياة الحرة الكريمة. قال أبو بكر الصديق في وصيته إلى خالد بن الوليد: احرص على الموت توهب لك الحياة.

وكان خالد بن الوليد يسير بين الصفوف يحرض الناس على القتال ويقول: يا أهل الإسلام إن النصر عز، وإن الفشل عجز، وإن مع الصبر النصر.

وهذا النصر لا يأتي به إلا من صبروا فغفر الله لهم وأثابهم فتحاً مبينا "يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم" (محمد ٧).

وقال تعالى "إن ينصركم الله فلا غالب لكم". (آل عمران ١٦٠).

ولا يحقق النصر إلا من حملوا أرواحهم فوق أكفهم، وآمنوا بأن الحق لا بد منتصر، وأنه سيخلفهم خلف صالح يقتدي بهم في رفع راية الحق وإزهاق كلمة الباطل، قال بعضهم:

تموت على حد الظبات نفوسنا   ولسنا على غير السيوف تسيل

وخطب عبد الله بين الزبير الناس لما بلغه قتل مصعب أخيه فقال: إن يقتل فقد قتل أبوه وأخواه وعمه. إنا والله لا نموت حتفا، ولكن نموت قصعاً بأطراف الرماح وموتاً تحت ظلال السيوف، وان يقتل مصعب فإن في آل الزبير خلفاً له.

طرف الشجاعة الآخر هو شجاعة اللسان والجنان، أو الشجاعة الأدبية قال الشاعر:

الرأي قبل شجاعة الشجعــان   هو أول وهي المحــل الثاني

وإذا هما اجتمعا لنفس حــرة   حازت من العليــاء كل مكان

وقد تمثلت الشجاعة كلها في أسلافنا، وقد كان الواحد منهم يقف في وجه زعيمه وقائده وبوجه إليه نقده البناء الذي يعمل به هذا الزعيم، وليس بعيداً عن أذهاننا موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد وقفت منه امرأة تقول له: أخطأت يا عمر، ويرد هو عليها بحلم المؤمن والزعيم العظيم: أصابت امرأة وأخطأ عمر.

أين نحن من هذا كله؟ لقد غابت الشجاعة الأصيلة عن مدركاتنا، لم نعد ندرك أن الشجاعة تتمثل في إقامة شعائر الدين وتقويم الأخلاق وإصلاح السياسة وانتظام المعاملات بين الناس.

وتناسينا أن الشجاعة هي إطلاق لسان العالم الأصيل بوعظ جاهل غليظ القلب أو مترف متشعب الأهواء وصاحب سلطان لا يحب الناصحين.

وتجاهلنا أن الشجاعة الأدبية تدعو الرجل إلى أداء الشهادة بصدق ونزاهة دون أن يهاب ذا جاه أو سطوة.

ولولا هذه الشجاعة الأدبية في قلوب الفئة القليلة لحرم كثيرون من الضعفاء حقوقاً يأكلها الأقوياء، ولا سبيل إلى إعادتها إليهم إلا بالقضاء العادل الشجاع قال سبحانه "ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه".

مضى عرب، وبقي عرب، لقد شجع أولئك فجبنا، آمنوا فكفرنا، انتهجوا نهج رسول الله (ص) فتنكبنا هذا النهج، تآلفت قلوبهم على الهدى، فتفرقنا بدداً لفساد قلوبنا وغشاوة على عيوننا "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".

صدق الله العظيم

القناعـــة

عن أبي هريرة عن النبي (ص) "ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس".

وقال عليه السلام "من أصبح وأمسى آمنا في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه كان كمن حيزت له الدنيا بحذافيرها".

وقد عرف الرسول (ص) في حديثيه الشريفين القناعة أبلغ تعريف وأوجزه، وبها يحوز صاحبها سعادة الدارين.

والقناعة هي رضى المرء بما في يده، وشكر الله على رزق يومه شكراً يستوجب معه رضى الله وسلام النفس الذي لا يتأتى إلا من خلال إيمان المرء وتسليمه بما قدر له قال تعالى "وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم" (الحجر ٢١).

وقال سبحانه "قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له" (سبأ ٣٩).

وبسط الله الرزق لعباده وقدره له إن هو إلا لحكمة لا يعلمها سواه سبحانه، وذلك يصدر – فيما أرى – من خلال تقوى من يرزقه الله، فإن المال بين أيدي الناس امتحان لهم، فقد يكون هذا نعمة على البعض ،وقد يكون نقمة على آخرين، قالوا:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

فالمال الذي يحوزه أناس لا ينفقونه في طاعة الله ومرضاته، بل في الآثام والمعاصي هو نقمة عليهم، وكل مال ينفق في سبيل الله وفيما شرعه هو نعمة على أصحابه مهما قل ونزر. قال رسول الله (ص) "كل معروف صدقة وما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة، وما وقى به الرجل عرضه فهو صدقة، وما أنفق الرجل من نفقة فعلى الله خلفها إلا ما كان من نفقة في بنيان أو معصية".

ولا يتبادرن إلى الذهن أن المال الذي ينفق في البنيان يقي الرجل عرضه به إغضاب لله، ولكنه البنيان الذي يقصد به صاحبه زينة الحياة الدنيا وزخرفها ، حتى يباهي به ويفاخر.

والقناعة لا تثمر لصاحبها إلا الراحة وهي مال لا ينفد. قال سعد بن أبي وقاص لابنه: يا بني إذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة، فإنها مال لا ينفد، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر، وعليك باليأس، فإنك لم تيئس من شيء قط إلا غناك الله عنه.

وقيل لأبي حازم: ما مالك؟ قال الغنى بما في يدي عن الناس، واليأس عما في أيدي الناس.

وقيل لآخر: ما مالك؟ فقال: التجمل في الظاهر، والقصد في الباطن. ويتجاهل أو يجهل كثيرون منا فضل القناعة، ويمضون في متاهات الحياة، يقلد بعضهم بعضا، ويباهي بعضهم بعضا. والتقليد هنا بطبيعة الأمر ليس فيما يرضي الله أو الضمير، فهو ليس في علم ينفع، وهو ليس في خير يشفع، هو تقليد للقشور في طول الحياة وعرضها.

وهؤلاء يبحثون عن رزق غدهم قبل أن يفكروا برزق يومهم، وكأن الرزق اليومي بات مضمونا، أما رزق الغد فهو بفعل اجتهادهم. وهم كثيرو التطلع إلى المزيد عما في أيديهم، وعما قسم الله لهم، وذلك يدل على عدم رضاهم وقناعتهم بما قدر لهم. قال النبي (ص): "إن روح القدس نفث في روعي: أن نفسا لن تموت حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب". وقال تعالى فيما حكى عن لقمان الحكيم " يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير".

ومن صور عدم القناعة في حياتنا ما نشاهده من تصارع على وسائل الحياة المادية التي باتت مطمح أولئك، ممن يجدون في هذه المظاهر أساساً لحياتهم مغفلين جوهرها الأصيل القائم على رضى الإنسان المطلق عن نفسه وثقته بها، ورحم الله أمراً عرف قدر نفسه.

وهذه الثقة وحدها هي الكفيلة ببعث القناعة في نفس صاحبها، وببعده في الوقت ذاته عن ميدان الصراع والتنافس، لاقتناء ما يثقل الكاهل، كما يفعل الكثيرون.

وهؤلاء المتنافسون كثيرو التطلع إلى ما في أيدي الناس، وما في بيوت الناس مع ضيق ذات اليد، كل ذلك حتى يقال عنهم إنهم يملكون ويقتنون فيحصل التفاخر الأعمى والتباهي المقيت الذي يجر عليهم والوبال في أجسادهم وأعصابهم وعقولهم وجيوبهم.

قال الحسن : ابن آدم لست بسابق أجلك، ولا ببالغ املك، ولا مغلوب على رزقك ولا بمرزوق ما ليس لك فعلام تقتل نفسك؟

وقالت الحكماء: أقل الدنيا يكفي وأكثرها لا يكفي.

وعدم القناعة تجر الإنسان إلى الشكوى والتبرم من الحياة، ومن تقسيم الأرزاق فيها، وهو في هذا كافر بنعمة الله التي قدرها له، فكل يوم من أيام المرء مقسم فيه

رزقه، الذي لا ينازعه فيه سواه. قال علي بن أبي طالب: الرزق رزقان: فرزق تطلبه ورزق يطلبك فإن لم تأته أتاك.

وشكوى المرء تثير من حوله التضجر والتبرم وشماته الأعداء، فقد حدث بعضهم قال: سمعني شريح وأنا أشتكي بعض ما غمني إلى صديق لي. فأخذ بيدي وقال: يا ابن أخي، إياك والشكوى إلى غير الله، فإنه لا يخلو من تشكو إليه من أن يكون صديقاً أو عدوا. فأما الصديق فتحزنه ولا ينفعك، وأما العدو فيشمت بك. أما سمعت قول العبد الصالح "إنما أشكو بثي وحزني إلى الله" فاجعله مشكاك ومفزعك.

وفي مجالسنا واجتماعاتنا تدور أحاديث كثيرة، ومعظمها – إن لم تكن كلها – يبحث في أمور الناس، ففلان مثلا اشترى كذا، وفي بيت فلان كذ وكذا، وفلانة تلبس كذا أو تتزين بكذا، وهكذا أحاديث لا تنتهي إلا لتبدأ من حيث انتهت، وهي تحمل طابع الإيمان المطلق بالزيف والزخرف التي تبعد صاحبها عن طريق الحياة السوي الأصيل.

ولا هَمَّ لهؤلاء إلا أن يجاروا غيرهم وهماً فيما يصنعون، حتى لا يبدوا أقل منهم في تظاهراتهم التي جعلوها مقياساً للبشر، وكأن الإنسان جسد فارغ في الأعماق إلا ما يصبغه من الخارج ويزخرفه.

وباتت هذه الفئة المتظاهرة المتصارعة في دوامة الأقاويل التي تلوم وتنتقد وتقرع دون وجه حق. ذلك لأنها فئة بهرتها الشكليات فحكموا على سواهم من خلالها.

ونجت – بفضل الله – من هذه المهاترات القلة القليلة التي آمنت بالأصل والجوهر والأساس، فلم تعد تكترث لتلك الأقاويل والسخافات، التي هي بالنسبة لها فقاعات تطفو على السطح فتذوب في لجة الحياة "فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض". (الرعد ١٧).

وقال بعضهم:

غنى النفس يغنيها إذا كنت قانعاً   وليس بمغنيك الكثير مع الحرص

وإن اعتقاد الهم للخير جامـــــع   وقلة هم المرء تدعو إلى النقص

وقالوا:

الفقر في النفس وفيها الغنـــــى   وفي غنى النفس الغنى الأكبـــر

الحلف بالله والطلاق

قال تعالى: "ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم. لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم" (البقرة ٢٢٤ -٢٢٥).

خلق الله السموات والأرض وما بينهما، وخلق الإنسان واستخلفه في الأرض، وسخر له مخلوقاته "سخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون".

وهذا دليل قاطع على شرف الإنسان وعلو قدره وسمو قيمته، مما يحمله بداهة على الشكر لخالقه بما أنعم الله عليه وأن يقدس ذاته وجلاله واسمه تقديساً ينم عن شكره وعرفانه وإيمانه.

وهذا يتحقق في صدقه إذا تحدث، وإخلاصه إذا تعامل، وأدائه الأمانة إذا أؤتمن، وإنجازه الوعد إذا وعد، بعفوية تحول دون القسم أو الحلف بالله.

ولكن إنسان اليوم قد ضاع في متاهات المادية المظلمة، وانساق مع غرائزه في بهيمية لا تعرف الرفق، وانجرف مع تيار الحياة التي يسوقهم سوق النعاج إلى الذبح، أولئك "الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا".

ضل سعي أولئك حين انتهكوا قدسية الله سبحانه وحرمته، واتخذوا من اسمه تعالى وسيلة إلى أغراضهم الدنيوية الرخيصة، وبات اسمه قسماً يقسمون به في الباطل قبل الحق، ويحلفون به في الهزل قبل الجد "أولئك الذين لا خلاق لهم في الآخرة، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم".

ونكاد نقابل بالحلف بالله في جميع مجالات حياتنا ومعاشنا، وبين طبقات مجتمعنا في صور كثيرة.

فمن هذه صورة البائع يحلف لك بالله ألف مرة على أن البضاعة كذا مثلا ثمنها ديناران ولكنه يبيعها لك بدينار إكراما لك. منطق أعوج ولسان آثم وقلب مريض، هو يتحدث بهذه كله متوهماً أنه صادق. فأين ربحه إذن إذا كان يحلف صدقا.

ولكنها أيمان ينخدع بها البسطاء السذج ممن تدور رؤوسهم عندها، ويعتقدون معها أن هذا التاجر أو ذاك هو على الحق كل الحق. قال (ص): "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم. قال فقرأها رسول الله (ص) ثلاث مرات. قال أبو ذر خابوا وخسروا من هم يا رسول الله ؟ قال المسبل – أي إزاره كبرا – والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب".

صورة أخرى نعيشها، فتشتري فلانة مثلا شيئاً بمبلغ معين متواضع. ولكن ما إن تسألها عن ثمنه حتى تحلف لك حلفاً غليظاً بالله إنه بالثمن كذا– تزيد طبعاً في ثمنه – لعلها تكبر في أعين السائلين وآذانهم. هذا هو اعتقادها بل وهمها للأسف.

قال سبحانه "ولا تطع كل حلاف مهين" وقال رسول الله (ص): "اليمين الغموس تدع الديار بلاقع أي خرابا".

صور كثيرة لا حصر لها تتخذ اسم الله حلفاً تتمسح به، وإن دل ذلك على شيء فهو يدل على أن الحلف باطل إذ لو كان صدقاً لما احتاج إلى هذه اليمين الغموس.

فالصدق لا يحتاج إلى تأكيد، وهو يعلن عن نفسه ويعلي أمره بين الناس في صراحة ووضوح.

أما الحلف الآخر فهو الحلف بالطلاق، وهذه آفة كثيرين في مجتمعاتنا، فلا تكاد تجلس في مجلس حتى تسمع عليه بالطلاق، وعليه بالحرام، وعليه بكذا وكذا ولو كان هناك غير الطلاق والحرام لحلف به.

أمر غريب تستحيل معه معظم النساء مطلقات طليقات، ذلك لأن الرجال في غمرة انسجامهم وانشراحهم في أحاديثهم باتوا مطلقين بالجملة، إذ إن الواحد منهم ما يكاد يطلق امرأته مائة مرة في الجلسة والواحدة، حتى يعرج على زوج صديقه أو رفيقه أو سواهما يريد أن يطلقها منه كما طلق امرأته غيابياً وهزوا.

إلى هذا الحد تصل قداسة الزواج عند بعض الرجال. قال رجل لعبد الله بن عباس: إني طلقت امرأتي مائة تطليقة، فماذا ترى علي؟ فقال ابن عباس: طلقت منك لثلاث. وسبع وتسعون اتخذت بها آيات الله هزوا.

وكتب إلى عمر بن الخطاب من العراق

إن رجلا قال لامرأته (حبلك على غاربك). فكتب عمر بن الخطاب إلى عامله أن مره يوافيني بمكة في الموسم. فبينما عمر يطوف بالبيت إذ لقيه الرجل فسلم عليه. فقال عمر: من أنت؟ فقال: أنا الذي أمرت أن أجلب عليك. فقال له عمر: أسألك برب هذه البنية ما أردت بقولك (حبلك على غاربك)؟ فقال له الرجل: لو استحلفتني في غير هذا المكان ما صدقتك. أردت بذلك الفراق. فقال عمر بن الخطاب: هو ما أردت.

وطلقت هذه المرأة نتيجة اللغو، كما تطلق الكثيرات في أيامنا ومع هذا يعود أزواجهم فيجامعونهن ويلدن لهم البنين والبنات، الذي يكونون حراماً من الحرام – استغفر الله –.

وأرى هنا أن اذكر أنواع الطلاق كما جاء به الشرع.

فالطلاق ثلاثة أنواع: الطلاق الرجعي كأن يقول الزوج لزوجه أنت طالق أو مطلقة أو طلقتك. وفي هذا يجوز للزوج مراجعة زوجه دون شروط رضيت أم أبت بدون عقد ومهر جديدين.

والطلاق البائن بينونة صغرى هو ما يكون قبل الدخول أو بعده بأن يقول الزوج لزوجه أنت علي حرام أو أنت بائن أو طالق أشد الطلاق أو أخبث الطلاق، فلا يجوز لها أن يعيدها إليه إلا بعقد ومهر جديدين سواء كانت في العدة أو بعد انقضائها بشرط رضاها.

ثم الطلاق البائن بينونة كبرى وهو الطلاق المكمل للثلاث فلا يجوز أن يعقد عليها إلا إذا تزوجت زوجاً غيره بعد انتهاء عدتها من الأول زواجاً مقصوداً لذاته – لا بقصد التحليل الذي يلجأ إليه الجهلة – ويعاشرها معاشرة الأزواج، ثم يفترقان أو يموت عنها، وتنتهي عدتها. قال سبحانه "فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله " (البقرة ٢٣٠).

فأين يقف بعدئذ أولئك الحالفون المطلقون؟ فالسنون تمر ويهرم الآباء ويشب الأبناء، ويكون فيهم العقوق والجحود لآبائهم. ويعجب الناس ويدهشون، ويستهول الآباء ويستفظعون موقف الأبناء منهم، وهم قد ولدوهم من أصلابهم.

وينسى أولئك انهم ولدوهم من أصلابهم، ولكن بطلاق أمهاتهم طلاقاً اتخذوه هزوا، وبنوا الحرام على الحرام. فكان الأبناء من هذا كله، نتيجة لاستهانة الآباء برباط الزوجية المقدس، لكون الجزاء من جنس العمل، وتلك سنة الله "ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا".

الاستئذان

قال تعالى "يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون. فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم. وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم. والله بما تعملون عليم".

تعالج الآيات الكريمات ما للبيوت من حرمة وقداسة معالجة دقيقة.

فالبيوت هي السكن الذي يفيء إليه الناس لإراحتهم من عناء العيش، ومشاق الحياة، فيها تطمئن قلوبهم وتسكن نفوسهم، وترتاح ضمائرهم.

من هنا جمعت الآيات كل ما يتعلق بالبيوت لتحفظ لها تلك الحرمة من أن تمس، وهذه القداسة من أن تهان.

وتحفظ البيوت على أصحابها عورات، يجاهد الإنسان كي يحبسها ويعقلها.

وهذه ليست عورات البدن فحسب، وإنما هي عورات المأكل والمشرب والملبس.

وهناك أمر أخطر من هذا، فالبيوت تحفظ على الإنسان عورات مشاعره النفسية. إذ ليس أقسى على الإنسان الضعيف الباكي من أن يفاجئه أحد في بيته، وهو في حالته تلك.

فليس إذن أحفظ لقداسة البيوت من الاستئذان قبل الدخول إليها، لما فيه من تقليل فرص النظرات العابرة القاهرة، بما تجر وراءها من بلايا كثيرة لا تؤمن عاقبتها.

والسلام هو لفظ الاستئذان، هو اسم من أسماء الله سبحانه يوحي في النفس الأمان والاطمئنان والألفة والاستئناس.

عن أبي هريرة عن النبي (ص) قال "خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعا. فلما خلقه قال اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة جلوس. فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك. فقال السلام عليكم فقالوا السلام عليك ورحمة

الله. فزادوه ورحمه الله. فكل من يدخل الجنة على صورة آدم. فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن" (البخاري).

ويكون الاستئذان بالإسلام ثلاث مرات قبل الدخول. عن قيس بن سعد (هو ابن عبادة) قال: زارنا رسول الله (ص) في منزلنا فقال: "السلام عليكم ورحمة الله" فرد سعد ردا خفياً قال قيس فقلت: ألا تأذن لرسول الله (ص)؟ فقال دعه يكثر علينا من السلام. فقال رسول الله (ص): "السلام عليكم ورحمة الله". فرد سعد رداً خفيا. ثم قال رسول الله (ص): "السلام عليكم ورحمة الله". ثم رجع رسول الله (ص) واتبعه سعد فقال: يا رسول الله إني كنت اسمع تسليمك وأرد عليك رداً خفياً لتكثر علينا من السلام. فانصرف معه رسول الله (ص). وأمر له سعد بغسل فاغتسل، ثم ناوله خميصة (ثوب خز أو صوف معلم) مصبوغة بزعفران أو ورس، فاشتمل بها. ثم رفع رسول الله (ص) يديه، وهو يقول "اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة".

والاستئذان يكون – كما تقدم – من النظر حتى لا تسبق النظرة صاحبها إلى داخل البيت الذي تستأذن إليه.

من هنا كانت السنة المشرفة للاستئذان باستقبال الباب بالركن الأيمن أو الأيسر. عن عبد الله بن بشر قال: كان رسول الله (ص) إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ويقول "السلام عليكم السلام عليكم".

أدب وضيء رفيع يجهله بل يتجاهله كثيرون، إذ يسقبل الواحد منا الباب بصدره ووجهه وعينيه وحواسه، فما إن يفتح الباب الذي يستأذن إليه حتى تقتحمه عيناه، هنا وهناك في أنحاء البيت، بل إنه قد يلج إلى الداخل قبل أن يؤذن له بذلك، معتمداً على عبارات جوفاء نتفوهها في ثنايا مجاملاتنا اليومية. فمثلا يقولون لفلان: تفضل في أي وقت، البيت بيتك.

هكذا بسهولة ويسر، يظن بعدها ذلك الإنسان وهماً أن كل دار أصبحت داره. فوجب عليه اقتحامها بلا استئذان. ولنا في رسول الله (ص) أسوة حسنة وهو القائل "زر غباً تزدد حبا".

أعود إلى الاستئذان فأقول: إن الاستئذان يتوجب إزاء دخول أي بيت بلا استثناء. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قلت أأستأذن على أخواتي أيتام في حجري معي في بيت واحد. قال: نعم. فرددت عليه ليرخص لي فأبى فقال: "تحب أن تراها عريانة؟ فقلت: لا. قال: "فاستأذن". قال: فراجعته أيضا.

فقال: "أتحب أن تطيع الله"؟ قلت: قلت نعم. قال: فاستأذن".

أما الأوقات التي لا يستقيم فيها الاستئذان للزيارة فقد حددها القرآن الكريم. قال تعالى "يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات. "من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء. ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض. كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم".

غض البصر

قال تعالى "قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم، ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون. وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها، وليضربن بخمرهن على جيوبهن، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات

النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن، وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون" (النور ٣١).

الآيتان الكريمتان تنبهان إلى موطن الخطر العظيم الذي يجتاح الإنسان فتتمرد من خلاله غرائزه الحيوانية التي يفقد معها عقله، وينحط بها عن مرتبة البشر.

وأساس هذا كله النظر، وهو ضرب من الزنى، الذي يجر الأعضاء كلها إلى الخطيئة والفاحشة. قال رسول الله (ص): "فالعين تزني وزناها النظر، واللسان يزني وزناه النطق، والرجل تزني وزناها الخطى، واليد تزني وزناها البطش، والقلب يهوى ويتمنى، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه" (روضة المحبين ٩٣).

وقال عيسى ابن مريم عليهم السلام "من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى في قلبه".

فالعين تفتح السبيل أمام مغريات الشيطان التي تسلك إلى الإنسان سبيلاً لا تخطئه، وهو سبيل المرأة.

عن سعيد بن المسيب قال: ما بعث الله نبياً فيما خلا إلا لم ييئس إبليس أن يهلكه بالنساء، ولا شيء أخوف عندي منهن. وما بالمدينة بيت أدخله إلا بيتي وبيت ابنتي اغتسل فيه يوم الجمعة ثم أروح.

وقال بعضهم: إن الشيطان يقول للمرأة، أنت نصف جندي وأنت سهمي الذي أرمي به فلا أخطئ، وأنت موضع سري وأنت رسولي في حاجتي. فنصف جنده الشهوة، ونصف جنده الغضب.

فالمرأة هي الأصل وهي المحور الذي تدور حوله الحياة فإذا صلحت صلحت الحياة، وإن فسدت كان الفساد.

ووضع الإسلام للمرأة من الأحكام والمبادئ ما يسيجها بسياج العفة والفضيلة، وبين أن إكرامها يكون بالاعتراف بحقوقها التي تقتضيها أهليتها، بإبعادها عن

مواطن الشبهات ومزالق الشهوات بنتاً وزوجة وأمّاً تغرس في نفوس أبنائها معاني الشرف والفضيلة والرجولة.

أما أن تخون المرأة هذه الكرامة فهذا يعني أنها لا تستحقها، وخيانة المرأة كرامتها تعني الكثير. فهي إن خانتها بنتاً كان ذلك عاراً وشناراً على نفسها وأهلها. وإن هي خانتها زوجة وأماً فهذا يعني انتهاك الحرمات واختلاط الأنساب، وضياع الحقوق، وفساد المودة بين الأهل والأقربين.

وبتنا نسمع الكثير عن بعضهن، مما هو أغرب من الخيال.

إحدى هذه القصص الواقعية تقول: إن فتاة علقت شابا أغراها بوعوده حتى حملت منه بالفاحشة.

وحانت ساعة الوضع حيث نقلتها إلى المستشفى سيارة عرفت فيها معلومات عن السائق واسمه وعائلته وهكذا، ووضعت هذه المرأة، وحين سئلت عن اسم أبي الطفل ذكرت اسم سائق السيارة.

ولنا أن نتصور ما حدث له، فقد جن جنونه، وهو الإنسان المستقر في بيته مع زوجته وأولاده.

ومضت الأمور على غير ما تشتهي الخطيئة، فقد أجريت للرجل فحوصات شاملة وعميقة أثبتت انه غير قادر على الإنجاب أي عقيم.

وهرع الرجل إلى زوجه وقد فقد صوابه، واعترفت أمام ثورته بأن أولاده هم أولادها من أخي زوجها.

وانتهى الأمر بالرجل إلى الجنون، والمرأة بأولادها إلى التشرد. ولا بد للخاطئة من أن تسقط وأن تنال العقاب في حياتها، وبعد مماتها.

قال رسول الله (ص): "يا معشر المسلمين إياكم والزنى فإن فيه ست خصال: ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة. فأما اللواتي في الدنيا فذهاب البهاء ودوام الفقر، وقصر العمر. وأما اللواتي في الآخرة فسخط الله وسوء الحساب ودخول النار".

والأمر لا يحتاج إلى تعليق، يكفي أن أذكر قولاً لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، اكفف أبصارهن بالحجاب، فان شدة الحجاب خير لهن من الارتياب وليس خروجهن بأضر من دخول من لا يوثق به عليهن. فإن استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل.

وقال بعضهم:

لا تأمنن على النساء ولو أخا — ما في الرجال على النساء أمين

إن الأمين وإن تحفظ جهـده — لا بد أن بنظـرة سيخـــون

وليس لواحد منا أن يجهل أو يتجاهل خطورة اختلاط الرجال بالنساء الاختلاط المحرم، إذ إنه ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما كما يقول رسول الهدى صلوات الله عليه.

وإن كثيرا من النساء ممن لا يشغل بالهن غير غرائزهن لا يؤتمن على عرض أو شرف أو بيت. فإن الشيطان يعرض للواحدة منهن في صورة ذلك الرجل الذي يجهد نفسه آناء الليل وأطراف النهار في إغراء النساء، فيجمل نفسه ويحسن هيئته، وينسق ملابسه، ويزين كلامه، ويطيب ريحه، ويتفنن في الحيل والخداع حتى يفسد قلوب الحرائر على أزواجهن، ويحرض قلوب الفتيات على آبائهن، فينصب لهؤلاء حبالته وينشر على أولئك شبكته، فتطلق المرأة زوجها أو تخونه في بيته، لأن الله لم يجعل للمرء قلبين في جوفه، وتفر البنت من بيت أبيها حتى لا يكتشف ضياع شرفها.

وهكذا تنهار كرامة الرجال، ويداس شرف الأسرة وتنتهك حرمة الإسلام وتشيع الفاحشة في الذين آمنوا " إنه كان فاحشة وساء سبيلا".

ويتناسى أولئك الغواة الفاسقون أن لهم أزواجاً وأمهات وبنات وأخوات وما يفعلوه يرتد عليهم وعلى أهل بيتهم، فقد جرت سنة الله سبحانه أن يكون الجزاء من جنس العمل قال الشافعيّ رضي الله عنه:

عفوا تعف نساؤكم في المحرم وتجنبوا ما لا يليـــق بمسلم

إن الزنا دين إذا استقرضتـــه كان الوفا من أهل بيتك فاعلم

وليس لهذا كله غير العلاج الوحيد الذي شرعه الإسلام، وهو منع اختلاط الرجال بالنساء داخل البيوت وخارجها الاختلاط المحرم. والقصص الواقعية المأساوية كثيرة في هذا الجانب.

وهذا الأمر قد أكده رسول الله (ص) فإنه ما خلا رجل بامرأة إلا همت به أو هم بها. قالوا ولَوْ كانا صالحين يا رسول الله. قال : "لو كانت مريم بنت عمران ويحيى بن زكريا".

وقال عليه السلام: "لا يخلون رجل بامرأة ولو كان يقرئها القرآن".

ثم إن مما يحول دون تفشي هذا الداء غيرة الرجل على أهله وهي الغيرة التي يرضى عنها الله ورسوله.

قال (ص): "الغيرة غيرتان: فغيرة يحبها الله وأخرى يكرهها الله. قلنا يا رسول الله، ما الغيرة التي يحب الله؟ قال أن تؤتى معاصيه أو تنتهك محارمه قلنا: فما الغيرة التي يكره الله؟ قال : غيرة أحدكم في غير كنهه".

ومثل هذه الغيرة المحبوبة تجعل الرجل حافظاً أميناً على أهله، حين يحول دون دخول أي رجل غير أمين، فإن تعود إنسان ما على دخول بيت دخولاً غير كريم يجعل منه عبدا لهذه العادة، والعادة إن تمكنت من نفس صاحبها استعبدته، بخاصة

إذا كانت هذه في طريق الخطيئة المحرمة. فإن لذة الحلال لا تساوي ولا تداني لذة الحرام عند النفوس البهيمية التي تمكنت منها غرائزها تمكناً أعمى.

فليتق الله المؤمنون في أهل بيتهم "يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسهم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة". صدق الله العظيم

في الدعـــاء

قال تعالى" وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان. فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون" (البقرة ١٨٦).

ما أحوج الإنسان إلى الله سبحانه في حال يأسه وبؤسه، وما أحوج الإنسان إلى خالقه في غمه

وهمه. والمؤمن موصول أبداً بالسماء خالقها، وهو اقرب ما يكون إليه حين تتأزم المواقف، وتستحكم الأمور، وتتألب الأيام، وتحلك الليالي، عندها لا ملاذ إلا الله، ولا ملجأ إلى سواه، فنفر إليه، ونلوذ به، ونحتمي بحماه، ونعتصم برحمته التي وسعت السموات والأرض. فنبتهل إليه بالدعاء وخشوع القلب، وسكون الجوارح، متعلقين بحبال الخوف والأمل والرجاء. وكلنا بأعماقنا، ومشاعرنا، وأحاسيسنا وسريرتنا وظاهرنا – إيمان ويقين برحمته وعطفه. فهو خالقنا ورازقنا وهو الرحيم بنا "سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم" (التوبة ٩٩). والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم" (البقرة ١٠٥).

والدعاء مخ العبادة كما يقول رسول الهدى صلوات الله عليه "ليس شيء اكرم على الله عز وجل من العبادة". والدعاء هو الذي نجى نوحاً من الغرق، وأنقذ إبراهيم من النار، ونجى إسماعيل من الذبح، وأخرج يوسف من البئر، ورد على يعقوب بصره، وكشف عن أيوب بلاءه، ونجى يونس من بطن الحوت، وأنقذ موسى من

فرعون وجنوده، ووهب يحيى لزكريا بعد يأس وقنوط، وهو الذي نجى عيسى من اليهود، وهو الذي أنقذ رسول الإسلام بعد ذلك كله من براثن المشركين "ثاني اثنين إذ هما في الغار" (التوبة ٤٠) وذلك بفضل اعتصامهم بالله ودعائهم له سبحانه "أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض" (النمل ٦٢).

وقوله سبحانه "ادعوني أستجب لكم" لا يربط الدعاء بوقت أو مكان فالمؤمن متوجه أبداً إلى الله، موصول دائماً بأسباب السماء، ينتظر من الله تعالى فرجاً والله سبحانه هو الكفيل بالفرج العاجل أو الأجل حسبما تقتضيه حكمته التي تدق على أفهامنا ومداركنا، حتى يحين حينه، فلكل أمر حين "وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون" (البقرة ١١٧).

ومع هذه فقد ورد في محكم آيات دستور البشرية، وفي أحاديث رسول الله (ص) الشريفة أوقات يترصدها المؤمن للدعاء، إيماناً منه ويقيناً باستجابة الدعوات فيها، وهذه الأوقات هي يوم عرفة من السنة، ورمضان من الأشهر، ويوم الجمعة من الأسبوع، ووقت السحر من ساعات الليل. قال تعالى "وبالأسحار هم يستغفرون". وقال (ص): "ينزل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول عز وجل "من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له؟".

من هنا فان المؤمن يغتنم الأحوال الشريفة لدعائه. قال (ص) "الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد". وقال (ص) أيضا "الصائم لا ترد دعوته". وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إن أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف في سبيل الله، وعند نزول الغيث، وعند إقامة الصلوات المكتوبة، فاغتنموا الدعاء فيها. وقال مجاهد: ان الصلاة جعلت في خير الساعات، فعليكم بالدعاء خلف الصلوات.

وتستجاب دعوة المؤمن في حالة سجوده قال أبو هريرة :قال النبي (ص) "أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد فأكثروا فيه من الدعاء، وروى ابن عباس

رضي الله عنهما عن النبي (ص) قال: "إني نهيت أن اقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً. فأما الركوع فعظموا فيه الرب تعالى. وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فإنه قمين أن يستجاب لكم".

والمؤمن حين يدعو الله، فإنه يتضرع إليه بكلمات تحكي مكنون نفسه وخشوع قلبه بخفوت صوت يحمل كل معاني التوسل والتبتل. قال سبحانه "ادعوا ربكم تضرعاً وخفية". (الأعراف ٥٥). وقال سبحانه بلسان زكريا عليه السلام "إذ نادى ربه نداء خفيا" (مريم ٣). ويكون حاله في هذا حال فناء كامل في ذات الله سبحانه، ينسى المؤمن فيها نفسه وزمانه ومكانه. ولا يعود يحيا إلا لحظات الاتصال الدائم والارتباط الكامل بالسماء، بخالقه، بالرحمن الرحيم الذي لا تخفى عليه خافية في السماء والأرض، وتشعل لهيب دعائه دموع ساخنة تغسل ذنبا أو خطيئة توبة واستغفارا. وقد بكى داود عليه السلام أربعين يوماً ساجداً لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموعه، وحتى غطى رأسه، فنودي: يا داود، أجائع أنت فتطعم؟ أم ظمآن، فتسقى؟ أم عار فتكسى؟ فنحب نحبة هاج العود فاحترق من حر جوفه. ثم انزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة. فقال: يا رب اجعل خطيئتي في كفي فصارت خطيئته في كفه مكتوبة. فكان لا يبسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيره إلا رآها فأبكته. قال : وكان يؤتى بالقدح ثلثاه، فإذا تناوله ابصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه.

وكان يقول في مناجاته: إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت عليّ الأرض برحبها وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إليّ روحي. سبحانك إلهي، أتيت أطباء عبادك ليداووا خطيئتي، فكلهم عليك يدلني. فبؤساً للقانطين من رحمتك وقد قال سيدنا محمد صلوات الله عليه "إذا أحب الله عبداً ابتلاه حتى يسمع تضرعه".

وإذا دعا المؤمن ربه فإنه يجزم الدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاءه فيه لأنه يتوسل إلى خالق الكون الكريم العادل، ولأنه يبتهل إلى الله الذي لا يخيب لعبد

رجاء قال (ص): "لا يقل أحدكم إذا دعا: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت ليعزم المسألة فإنه لا مكره له. وقال (ص) "إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء". وقال (ص) كذلك "ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله عز وجل لا يستجيب دعاء من قلب غافل". وقال سفيان بن عيينة: لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فإن الله عز وجل أجاب دعاء شر الخلق إبليس لعنه الله إذ قال "رب أنظرني إلى يوم يبعثون . قال إنك من المنظرين" (الأعراف ١٥).

وعلى داعي ربه إلا يتعجل الإجابة لقوله (ص): "يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول قد دعوت فلم يستجب لي، فإذا دعوت فاسأل الله كثيرا. فإنك تدعو كريما". وقال (ص): "إن ربكم حيي كريم يستحيي من عبيده إذا رفعوا أيديهم إليه أن يردها صفرا".

ويروى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه استسقى بالعباس رضي الله عنه، فلما فرغ عمر من دعائه قال العباس: اللهم إنه لم ينزل الغيث بلاء من السماء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة. وقد توجه بي القوم إليك لمكاني من نبيك صلى الله عليه وسلم. وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا بالتوبة، وأنت الراعي لا يهمل الضالة، ولا تدع الكبير بدار مضيعة. فقد ضرع الصغير، ورق الكبير، وارتفعت الأصوات بالشكوى، وأنت تعلم السر وأخفى. اللهم فأغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا فإنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون. قال فما تم كلامه حتى ارتفعت السماء مثل الجبال.

مع ذلك كله قد يحدث إنسان نفسه فيقول: دعوت الله كثيراً فلم يستجب لي، وأرد على هذه فأقول دعونا الله كثيرا، وابتهلنا إليه طويلا. فقد دعوناه في رمضان وفي ليلة القدر منه، وقبل رمضان في شعبان والنصف منه، وفي عرفات وفي الصلاة وخارج الصلاة، وفي السجود وفي السحر، وفي كل زمان وفي كل مكان ومع ذلك

لم يجب لنا دعاء. والسبب واضح، فقد أقمنا بيننا وبين الله حجاباً كثيفاً من الذنوب والآثام والخطايا، حجاباً لا يخترقه دعاء، ولا ينفذ منه رجاء فإسلامنا اسميّ وتوحيدنا تقليدي وصلاتنا رياء، وصيامنا جوع، وقيامنا سهر، وحجنا تهريج، والقوي فينا يأكل الضعيف، والغني يمتص دماء الفقير.

وما منا إلا ظالم لنفسه، أو عاق لوالديه، أو مفسد لولده، أو قاطع لرحمه، أو منازع لأهله، أو خائن لصديقه، أو مغتاب لأخيه، أو نمام عليه، أو حسود له، ناهيك ما تشاهده من رذائل ومنكرات وموبقات.

وكي يكون الله أقرب إلينا من حبل الوريد، وحتى يجيبنا قبل أن ندعوه، ويعطينا قبل أن نسأله فإن ثمن هذا هو تطهير القلوب والألسنة والأيدي من أدرانها، وقبل هذا تطهير النفوس مما علق بها من سوء وشر و "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم". وقال (ص): "إن الرجل ليطيل السفر أشعث أغبر مطعمه حرام ومشربه حرام وغذي بالحرام يمد يديه إلى السماء يقول: يا رب يارب. فأنَّى يستجاب له؟". وقال (ص): "يا سعد أطب مطعمك يستجب لك". هذا هو العلاج، تطهير فتطهير. "فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون" (غافر ١٤).

وصدق الله العظيم

الأم والأمومة

قال تعالى "وقضى ربك ألا تبعدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا".

لقد اخترع عصرنا الحديث ضمن ما اخترع احتفالاً بيوم الأسرة، وعلى رأسها الأم في الحادي والعشرين من آذار الربيع في كل عام، وفي هذا اليوم يحرص كل فرد على المشاركة، وهو يتقدم إلى أمه بنتاج كده، وزاد مشاعره وقلبه.

وعند هذه النقطة يتعاظم عجبي، إذ كيف يغفل أولئك أعياد الأم العريضة الطويلة في كل لحظة من لحظات الحياة؟ ونحن نرانا نندفع بكل ما أوتينا من قوة لإرضائها، وهي تسخو وتسخو بعطائها الدائب الذي لا يفتر، وهي بقلبها، بروحها، ومشاعرها وأعصابها تشاركنا همومنا، وتحاول جاهدة لو تحملها عنا، لو تزيح ثقلها عن قلوبنا، فتخفف آلامنا، عندها عندها تتفجر في أعمق أعماقنا ينابيع الحب الكبير لها وإلى جانب – هذه الينابيع نقاط ألم قد امتزجت بدموع سخية براً ورفقاً بهذه الأم، وحالنا في داخلنا يهمس، كيف تمضي هذه الحياة لو خلت من قلب أم؟

وتتسلح الأم بالدعاء إلى الله حتى يخفف آلامنا، ويبارك في فرحنا، والسموات العلى تفتح ذراعيها لدعواتها قال (ص): "دعوة الوالدة أسرع إجابة، قيل يا رسول الله، ولم ذاك؟ قال هي أرحم من الأب، ودعوة الرحم لا تسقط".

وإكرام الوالدين والاحتفال بهما أزليّ منذ وجدا، فسبحان الذي خلق الإنسان، وخلق فيه غرائزه، وسبحان الذي خلق الزوجين الذكر والأنثى. فآدم هو الأب، وحواء هي الأم. ومن هذين كنا.. آباء وأمهات، بنين وبنات، أسرة مقدسة متماسكة منذ الأزل، وإلى يوم يبعثون.

ومنذ كانت الأسرة نواة للخلق، والأبناء والبنات يرددون الأنشودة الخالدة، فهو التقديس الفطريّ، والغريزة الطبيعية، والحب العفويّ الناشئ عن الأصل الواحد الذي لا يمكن أن يفك بحال، مهما طرأت عليه من ظروف شكلية لا تمس الجوهر، فأنى توجهت، فالأسرة هي الأم أنشودة الحب والحنان والرحمة والعطاء. والأب هو أنشودة الشفقة والعطف والجلد والكفاح، والأبناء يرددون الأنشودة العظيمة مترجمة

إلى بر وتضحية وإسعاد لهذين اللذين هما سبب الوجود في الحياة، بما في هذه الحياة من علامات السعادة وآيات الهناء وسلام النفس وطمأنينة الفؤاد.

فاحتفال الأم أزليّ منذ وجدت، ويتمثل هذا في خلق آدم، وهو رب أسرتها والملائكة هم من أقام ذلك الاحتفال بأمر من الله سبحانه، حين أمروا بالسجود له حين خلقه تعظيماً وتكريما.

أما هدية الله سبحانه لأسرة آدم في شخصه فهي الخلافة على الأرض وهي الهدية المتجددة القائمة ما قامت على الأرض حياة.

أليس عيد الأسرة عيداً أزلياً مخلوقاً مع الأبوين؟ ألم تحتفل به السموات وملائكتها؟ ألم يكن أمر الله لملائكته تأكيداً على ديمومة هذا العيد وخلوده؟

أما حكمة الله تعالى في إباء إبليس واستكباره عن السجود لآدم فإنه إعلام وإعلان عن تلك الفئة الغادرة الباغية الجاحدة حق الأبوين. وهذه الفئة العامة تبقى في مستوى إبليس الفرد في العقوق والجحود. فهذا عصى ربه "فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين. قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ. أستكبرت أم كنت من العالين؟ قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين. قال فاخرج منها فإنك رجيم. وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين. قال: رب فأنظرني إلى يوم يبعثون. قال: فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم. قال: فبعزتك لأغوينّهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين. قال: فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين" (ص ٧٣-٨٥).

أقول: هذا عصى ربه، أي إبليس، وذاك العاق جحد والديه وأنكر فضلهما، وذلك هو الكفر عينه، والكفر بهما كفر بالله سبحانه، ففي إرضائهما إرضاء لله، وفي سخطهما سخط له تعالى، وقد ربطت آياته المحكمات بين طاعتهما وطاعته"أن أشكر لي ولوالديك إليّ المصير" (لقمان ١٤) وقال رسول الله (ص) "إياكم وعقوق

الوالدين" فإن ريح الجنة يوجد من مسيرة خمسمائة عام، ولا يجد ريحها عاق". فريح الجنة محرمة على العاق والديه مهما قدم من خير في دنياه. وأي خير يقدمه المرء لا يعدل ذرة بر يمنحها والديه.

قال عليّ رضي الله عنه "لو علم الله شيئاً في العقوق أدنى من أف لحرمه، فليعمل العاق ما شاء أن يعمل، فلن يدخل الجنة، وليعمل البار ما شاء أن يعمل، فلن يدخل النار".

فأي أمل يرجوه الإنسان من العاق بعد تحالفه مع إبليس بعقوق والديه، بل أي خير يرجوه العاق من نفسه، وأي نفع؟ فهل يأمل خيراً في حطام الدنيا أو في الأهل والولد؟ فإن من عق والديه عقه ولده.

قرأت فيما قرأت عبرة هائلة في قصة قصيرة: حمل شاب أباه الطاعن في السن على ظهره في الطريق الطويل المؤدي إلى قريتهما. وفي منتصف الطريق طلب الأب من ابنه أن ينزله عن ظهره فيستريحا في ظل شجرة فأطاع الابن، وجلس الاثنان يستريحان، فتنهد الأب وقال: يا ولدي، قبل خمسين سنة كنت شاباً قوياً مثلك وحملت أبي على ظهري في هذا الطريق، وجلسنا نستريح تحت هذه الشجرة ذاتها.. ولن أعلق- ففيها ما يفوق كل تعليق – قال رسول الله (ص): بروا آباءكم يبركم أبناؤكم".

فالوالدان هما أمانة الله في ذمة الأبناء، وبرهما والسعي عليهما وإكرامهما يزيد في عمر الأبناء. قال (ص)"بر الوالدين يزيد في العمر"، وهو عند الله الجهاد العظيم الذي يعدل الجهاد والحج والعمرة. قال (ص) "ليس الجهاد من ضرب بسيفه في سبيل الله ، إنما الجهاد من عال والدته، ومن عال والده في جهاد، ومن عال نفسه كفاً عن الناس فهو في جهاد".

عن أبي أمامة قال: قال رسول الله(ص): "تجهزوا إلى هذه القرية الظالم أهلها – يعني خيبر – فإن الله فاتحها عليكم إن شاء الله تعالى، ولا يخرجن معي مصعب ولا مصعف (أي ضعيف). فانطلق أبو هريرة إلى أمه فقال: جهزيني فإن رسول الله قد أمر بالجهازة للغزو فقالت: تنطلق وتتركني، وقد علمت ما أدخل المرفق يريد المخرج إلا وأنت معي؟ قال: ما كنت لأتخلف عن رسول الله، فأخرجت ثديها فناشدته لما رضع من لبنها، فأتت رسول الله (ص) فأخبرته. فقال: انطلقي فقد كفيت. فأتاه أبو هريرة فأعرض عنه رسول الله (ص). فقال: يا رسول الله، أرى إعراضك عني. لا ادري ذلك إلا لشيء بلغك. فقال: أنت الذي تناشدك أمك وأخرجت ثديها تناشدك لما رضعت من لبنها فلم تفعل؟ أيحسب أحدكم إذا كان عند أبويه أو أحدهما أن ليس في سبيل الله؟ بلى هو في سبيل الله إذا بّرهما وأدى حقهما".

قال أبو هريرة: لقد مكثت بعد ذلك سنين ما أغزو حتى ماتت. وكان رجل من النساك يقبل كل يوم قدم أمه، فأبطأ يوما على إخوته فسألوه فقال: كنت أتمرغ في رياض الجنة، فقد بلغنا أن الجنة تحت أقدام الأمهات.

وتمضي الحياة لتكمل دورتها الأزلية، ويمضي معها الأبوان الشيخان وليس من زاد يتزودانه في مشوار الحياة غير بر الأبناء بهما، وذلك يشعرهما بأن ثمرتهما قد آتت أكلها خصباً متجددا، وظلاً وارفاً يظللهما في شيخوختهما، ودفئاً حانياً يقيهما برد الوحدة في الدرب الطويل الطويل، يجسد ذلك كله بريق يلمع في عيون البراعم التي تتفتح في حديقة أبنائهما، وضحكات بريئة تزغزد في جنبات هذه الحديقة.

وهكذا رسالة أبدية متجددة، الأبوة والأمومة، فولد اليوم هو الأب غدا، وبنت اليوم هي أم في غدها، ومن بعدهما الأبناء، أيام تدور، وسنون تحكم دورة الحياة لتؤكد رسالة بقاء النوع على هذه الأرض ، وفي ذمة الأبناء، يبقى الدين الكبير لآبائهم وأمهاتهم. قيل لمعاذ: ما حق الوالد على الولد؟ قال: لو خرجت من اهلك ومالك ما

أديت حقه! وتتجدد الأعياد، الأيام كلها للأم أعياد بل الساعات واللحظات كلها أعياد تغني فيها الأكوان أنشودة الأم التي كتبتها السماء، ولحنتها اقدس المشاعر، والحياة هي مسرح الاحتفال ،ويبقى الاحتفال بالأم قائماً ما قامت هذه الحياة، وما بقيت على الأرض أمومة.

خاتمـــة

هذا الكتاب مجموعة أحاديث إذاعية، قدمت في صباح كل ثلاثاء على مدى ثلاث سنوات تقريبا، وهي مع كونها أحاديث إذاعية فقد اعتمدت المصادر والمراجع التي تبعدها عن أي عبث أو فراغ.

وهي في الوقت ذاته تعتمد خلاصة تجارب عامة وخاصة، وكلها تجارب يمر بها أو ببعضها جميعنا.

ويلاحظ من يقرأ الكتاب أموراً كانت في وقت إذاعتها مناسبة لكونها أحاديث إذاعية.. أول هذه الأمور: بعض التكرار غير الممل الذي يلاحظ في مواضع تتشابه في بعض جوانبها، وهذا بلا شك يغفر لصاحبه حين يتوجه به إلى مستمعيه، الذي يفترض في بعضهم سماع هذا الحديث دون ذلك، وفي مثل هذه الحالة يتحتم هذا التكرار الذي يعيد إلى الأذهان خلاصة ما لم يسمع، أو الربط بين ما سمع وما لم يسمع.

والأمر الثاني: هو عدم ذكر المصادر والمراجع، وهي كثيرة بلا حصر، حيث كان الحديث أحياناً يعتمد على أصول كثيرة حرصاً على جوهر الشريعة قرآناً كريماً وحديثاً شريفا، وما دار حولهما من دراسات وكتب وتأليف.

وبعد.. فليس يرجى مما تقدم غير النفع المخلص للقارئ الكريم، وقبل هذا، الثواب من الله سبحانه وتعالى "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون".

والحمد لله أولا وآخراً

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

المؤلفات المطبوعة للكاتبة

١- كليلة ودمنة في الأدب العربيّ – دراسة مقارنة – الماجستير – مطبوعة.

٢- العباس بن الأحنف – دراسة مقارنة – الدكتوراة – مطبوعة

٣- "ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد" أديان مقارنة.

٤- "مثل الذين حُمّلوا التوراة لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً" أديان مقارنة.

٥- "ولتجدنهم أحرص الناس على حياة " أديان مقارنة.

٦- مصادر الحكمة في قصص كليلة ودمنة". أدب مقارن

٧- مستوى اللغة العربية .

٨- الشعر العباسي (مع مجموعة) لجامعة القدس المفتوحة.

٩- مخططات لمّا تطبع .

والله الموفق



المرأة في الإسلام

بنتاً وزوجة وأماً





الأردن - عمّان - شارع الجمعية العلمية الملكية - مقابل باب الجامعة الأردنية الشمالي
هاتف 5837 533 6 962+ - فاكس 1661 533 6 962+ ص ب (1746) - الجبيهة

الأردن -عمّان - وسط البلد - مجمع الفحيص التجاري- هاتف : 627 627 4 6 962+
www.darwael.com E-mail:wael@darwael.com

تطلب منشوراتنا من :

- الشارقة : مكتبة الجامعة - هاتف 5726001 6 971+ ص ب 4540
- بغداد : مكتبة الذاكرة - الاعظمية - مجاور السفارة الهندية
  هاتف: ٤٢٥٧٦٢٨ - تلفاكس: ٤٢٥٩٩٨٧ - الثريا: ٠٠٨٨٢١٦٢١٢٤١٧١٤
- الجزائر: أمين للتسويق الدولي للكتاب العلمي والجامعي
  تلفاكس 773355 21 213+ ص ب 75 حسين داي 16040 الجزائر

